التقدمي

نشرة شهرية يصدرها المنبر التقدمي - مملكة البحرين SDPA 499 العدد 142 السنة السابعة عشر - سبتمبر 2019

تشريعات «تُشرّعن» للبطالة

ماذا يريد الناس من مجلس النواب؟ 5

الثورة الصناعية ودور المؤسسات في التنمية الاقتصادية 12

الحرية إلى أبعد حد 20

موقفنا

البعثات قضية وطنية وليست طائفية

لا ننظر لقضية البعثات الدراسية كقضية طائفية، بمعنى أنها تخص أبناء طائفة بعينها، لأننا ننظر إليها من منظور وطني شامل، ففي مثل هذا الوقت من كل عام حين تعلن وزارة التربية والتعليم عن توزيع البعثات الدراسية للجامعات على المتفوقين من خريجي الثانوية العامة، ومنذ سنوات، تثار أسئلة حقيقية وجادة عن المعايير التي تتبعها الوزارة في هذا التوزيع؛ حين يجد طلبة وطالبات متفوقون وبنسب مئوية عالية جداً أنفسهم خارج هذا التوزيع، أو أنهم لا ينالوا رغبات التخصص التي تقدموا من أجلها، فيما تذهب بعض البعثات لمن نالوا معدلات أقل، وينال البعض الآخر بعثات في تخصصات حرم منها من حققوا نتائج دراسية أعلى بكثير.

لا تبدو التبريرات والتفسيرات المقدمة من وزارة التربية مقنعة؛ خاصة بعد إدخال نظام إخضاع المتفوقين المرشحين للبعثات لمقابلات للجان تقّيم مهاراتهم، وتخصيص ما نسبته 40٪ من تقرير أحقيّة الطالب لنيل البعثة لما يقال إنه أداء الطالب في المقابلة، والاعتراض هنا لا يطال هذه النسبة المرتفعة للأداء في المقابلة، وإنما أيضًا ما يطرح من أسئلة وجيهة عن المعايير المتبعة في تقييم أداء الطلبة خلالها، كأن ما حصدوه من نتائج مشرفة في سجلاتهم الدراسية وفي الامتحانات التي اجتازوها ليس ذا أهمية، بل إن الأمر يمتد ليشمل السؤال عن مبررات وجود مثل اللجان، في غياب الشفافية الضرورية لأداء عملها.

من الردود الرسمية التي يجري تداولها رداً على الانتقادات النيابية والشعبية لتوزيع البعثات الزعم بأن المنح الدراسية المخصصة لدراسة الطب، مثلاً، محدودة العدد، ويأتي هذا القول مشفوعاً بالإدعاء بأن هناك فائضاً من الأطباء الخريجين البحرينيين، وأن لا حاجة لعدد كبير لمنح الطب!

لا نعلم كيف يتجرأ مسوقو هذا الرد على تسويقه، وهم يرون بأم أعينهم مستشفياتنا الحكومية والخاصة تعج بالأطباء غير البحرينيين من مختلف الجنسيات، والكثير منهم لا يتمتع بقدرات أو مهارات يعجز عنها خريجو الطب من البحرينيين، بمن فيهم حديثو التخرج والذين ما يزال العشرات منهم عاطلين عن العمل منذ سنوات، وما يقال عن الطب يقال عن التمريض والهندسة والتعليم وغيرها من حقول.

ليس الخريجون المستحقون للبعثات أو الباحثون عن عمل من أبناء طائفة واحدة. ثمة شكوى عامة في المجتمع كله من هذه القضية. هناك سوء تدبير وإدارة لهذا الملف الكبير الذي يتصل بمستقبل أبنائنا وبناتنا، عدّتنا للمستقبل، وعلى المسؤولين الإصغاء بما يضجّ به المجتمع من شكوى، لا تجاهل ذلك.

التقدمي

في ذكرى الاستقلال الوطني

«القومي» و«التقدمي» يدعوان للوحدة الوطنية واستلهام دروس الذكرى

بمناسبة ذكرى استقلال البحرين صدر عن جمعيتي المنبر التقدمي والتجمع بياناً دعتا فيه إلى الوحدة الوطنية، وإلى استلهام الدروس والعبرة من هذه المناسبة الوطنية، وجاء في البيان:

«يحتفل شعبنا في الرابع عشر من أغسطس من كل عام بذكرى الاستقلال الوطني من التبعية البريطانية عام 1971، حيث بات هذا اليوم عنواناً لاستعادة السيادة والاستقلال والكرامة الوطنية، ولتنتهي بذلك مرحلة تاريخية امتدت منذ أواسط مايو / أيار من العام 1861 واستمرت فيها مطالبات شعب البحرين بكافة أطيافه الوطنية ومكوناته بالاستقلال عن التاج البريطاني عبر نضال لم يهدأ وانتفاضات وتحركات شعبية ومطلبية توجت في نهاية المطاف بإستجابة هيئة الأمم المتحدة لتنظيم استفتاء شعبي تاريخي حول استقلال وعروبة البحرين الذي نظمته الأمم المتحدة استجابة للمطالب الوطنية العادلة والمشروعة التي اجمع عليها شعبنا نحو إقامة دولة عربية مستقلة كاملة السيادة، الأمر الذي أوقف بدوره كافة المطالب والأطماع الخارجية وسد جميع أبواب المؤامرات والدسائس المتربصة ببلادنا حينها، كما سمح بشكل تلقائي بإجراءات إعادة التنظيم السياسي والإداري لدولة البحرين الفتية، والذي أعقبه مباشرة الإعلان عن انضمام البحرين لكل من الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة باعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة.

لقد ترافق إعلان الاستقلال السياسي هذا مع زخم حراك جماهيري لشعب البحرين، عبرت من خلاله الجماهير وقواها الوطنية عن مطالبتها بضرورة المشاركة السياسية وتشريع حرية العمل السياسي والنقابي وتهيئة الأرضية اللازمة للمشاركة الشعبية في إدارة شؤون البلاد وبناء الدولة الديمقراطية ، وهو ما عبر عنه آنذاك بانتخاب المجلس التأسيسي عام 1972 وصدور دستور عام 1973 وما تزامن معه من تصاعد في المطالب النقابية والوطنية، واستمر حتى التوقف القسري للحياة النيابية الوليدة بعد حل المجلس الوطني في أغسطس 1975 واللجوء بعدها للخيار الأمني الذي ظل مهيمنا لمدة تجاوزت الـ25 عاما.

وقد جاء بعدها مشروع ميثاق العمل الوطني ليمثل حالة فريدة من الاستنهاض الوطني تمازجت فيه الإرادة الشعبية مع مشروع جلالة الملك الإصلاحي، للخروج من حالة الاحتقان السياسي إلى رحابة الأمل والانفراج السياسي والوطني، والذي عبرت عنه بوضوح النسبة الكبيرة في التصويت الشعبي على ميثاق العمل الوطني بلغت 98.4٪. لقد مثلت مرحلة التصويت على الميثاق وما تبعها من مواقف وتصريحات رسمية وشعبية مطمئنة ومتوافقة بشكل عام، ومن ثم استئناف الحياة النيابية عام 2002، مثلت مرحلة تاريخية هامة ومفصلية في تاريخ بلادنا الحديث، حيث سبقها وتزامن معها تبييض السجون والمعتقلات من سجناء الرأي والضمير والسماح بعودة جميع المنفيين على خلفية نشاطهم السياسي، وتجاوب مختلف القوى السياسية مع النهج الإصلاحي الجديد، نظرا لما مثلّه في حينه من تلاحم بين القيادة والمواطنين والتفافهم حول هذا المشروع الإصلاحي الطموح. الا انه مع التراجعات التي حدثت في بعض المفاصل السياسية، وما تبعها من تراكمات وإرهاصات وإخفاقات أفضت بدورها لتراكمات سياسية وشعبية سلبية اعتبرت سببا رئيسا لعودة شرائح شعبية واسعة في فبراير من العام 2011 للمطالبة بالحريات السياسية والحقوقية وتوسيع الصلاحيات البرلمانية وعدالة التمثيل وإلغاء كافة مظاهر التمييز والتجنيس وتحقيق العدالة الاجتماعية، لتدخل بعدها البحرين مجددا في سلسلة من التراجعات وحالات الانقسام والتضييق على الحريات وتغليب الحلول الأمنية مع تصاعد حدة الانقسام الاجتماعي وصعود مخاطر التفتيت الطائفي. ويزداد الأمر سوءا مع تزايد حدة الصراع على مستوى المنطقة بأسرها، وتزايد لعبة خلط الأوراق ضمن حالة الصراع الإقليمي المستمرة حتى الآن، بما في ذلك تنامي تغلل المشروع الصهيوني الذي بات يشكل تهديداً جوهرياً لانتمائنا القومي واستقلالنا السياسي.

وإذ نمر اليوم بذكرى يوم الاستقلال الوطني، وإذ نسترجع تلك المحطات التاريخية المهمة والمفصلية من تاريخ بلادنا، فأننا في أشد الحاجة في وقتنا الراهن لنتعلم منها العبر والدروس علها تسعفنا للنهوض مجددا ببلادنا من عثراتها السياسية والاقتصادية، وفي مقدمة هذه الدروس الأهمية القصوى لاستعادة اللحمة الوطنية وإعادة الروح لمبادئ ميثاق العمل الوطني من خلال إيجاد الحلول السياسية بدلا من الأمنية وإطلاق سراح معتقلي الرأي وإعادة الجنسيات وإطلاق حرية العمل السياسي والمدني ووقف التضييق على الناشطين السياسيين والحقوقيين وإطلاق حوار وطني موسع تسنده إرادة سياسية صادقة، تقود بلادنا إلى حيث التوافق والوحدة والتلاحم الوطني على طريق إعادة قاطرة الإصلاح الدستوري والسياسي الحقيقي غير المنقوص إلى مسارها المنشود، من أجل رفعة وتقدم بلادنا وشعبها، ووقف كافة التدخلات الخارجية في سيادة واستقلال البحرين وإرادة شعبها.

في اليوم العالمي للشباب

قطاع الطلبة والشباب ب"التقدمي" يطالب بالعدالة والشفافية في توزيع البعثات

إيماناً من قطاع الشباب والطلبة في المنبر التقدمي لما لهذا القطاع في البحرين من دور في النهوض بالمجتمع على مختلف الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبمناسبة اليوم العالمي للشباب الذي يصادف 12 من أغسطس من كل عام. ومنذ أن أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام 1999 اعتبار هذا اليوم يوما دوليا للشباب دأب قطاع الشباب على الاحتفاء بهذه المناسبة في كل عام.

وفي هذا العام 2019 تم تحديد شعار الاحتفال «إتاحة التعليم للجميع وتيسيره أمام الشباب» وهو شعار ينسجم مع مقتضيات الواقع الراهن الذي يفرض تحركاً جدياً ونوعياً للنهوض بواقع التعليم والنهوض بمقوماته واركانه لضمان التعليم الجيد والمنصف والشامل للجميع وذلك تأسيسا على الهدف رقم (4) من خطة التنمية المستدامة لعام 2030 للمفوضية السامية للأمم المتحدة، الذي ينص على «ضمان التعليم الجيد المنصف والشامل للجميع وتعزيز فرص التعلّم مدى الحياة للجميع».

يؤكد قطاع الشباب والطلبة بالمنبر التقدمي بهذه المناسبة بأن الشباب هم رهان التغيير على مختلف الأصعدة الوطنية وهم الذين بمقدورهم أن ينجزوا هذه المهمات إذا ما أتيحت لهم الفرصة في العمل وإبراز طاقاتهم والمشاركة في عمليات صنع القرار والتعبير عن أنفسهم بحرية، وهو ما يحتم على الحكومة والمؤسسات الرسمية ومنظمات المجتمع المدني أن تعمل على إشراك الشباب في مختلف الفعاليات والحوارات وعلى كل الأصعدة لمناقشة جميع ما تعنى به هذه الشريحة من قضايا وهموم تواجهها ووضع الحلول والخطط المناسبة لها.

وحول شعار هذا العام بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي للشباب وهو «اتاحة التعليم للجميع» يؤكد قطاع الشباب والطلبة بالمنبر التقدمي أنه بالرغم من العديد من الخطوات التي اتخذتها الحكومة من أجل تطوير التعليم في البلاد، فإن الواقع التعليمي لا يرتقي إلى طموحات شبابنا ولا إلى المعايير الدولية المتعلقة بالتعليم، ولازال بحاجة إلى الكثير من الجهود للنهوض به خاصة فيما يتعلق بعدالة توزيع البعثات والمنح الدراسية وضرورة تطبيق معايير الشفافية والمساواة والحيادية عند توزيع البعثات الدراسية، يضاف إلى ذلك أن الكثير من حملة الشهادات الجامعية من أبناء البلاد يعانون من البطالة وشحة فرص العمل في حين تبين التقارير زيادة العمالة الوافدة إلى مستويات عالية، إضافة إلى عدم الاستقرار الوظيفي للشباب البحريني، ناهيك عن زيادة تكاليف الدراسة الجامعية وتدني الأجور وغيرها من هموم يومية كتدني الخدمات الإسكانية والخدمات الصحية وزيادة تكاليفها التي يعاني منها الشباب وكل فئات الشعب البحريني.

ووفق أهداف ومبادئ «اليونسكو» التي تعزز الحقوق الإنسانية فإن قطاع الشباب والطلبة بمناسبة اليوم الدولي للشباب يدعوا إلى توسيع أجواء الديمقراطية للشباب وإتاحة الفرصة واسعة لهم للتعبير عن الرأي والمشاركة بحرية في الانضمام لمؤسسات المجتمع المدني وتشكيلها بلا قيود، تشجيع إقامة بيئة حرة ومستقلة وقائمة على التعددية في وسائل الإعلام المطبوعة والمذاعة والإلكترونية، وتطوير وسائل الإعلام بهذه الطريقة يعزز حرية التعبير ويسهم في إرساء السلام، وضمان الاستدامة، والقضاء على الفقر واحترام حقوق الإنسان.

فضفضة

مرايا خادعة

عيسى الدرازي

يعرض على منصة الأفلام الشهيرة (Netflix) مسلسل مرايا خادعة – (When They See Us). يحكي المسلسل بإختصار واقعة حدثت في ثمانيات القرن الماضي في ولاية نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية لخمسة مراهقين يافعين من أصول إفريقية ولاتينية. بعد نهاية اليوم الدراسي يتوجهون إلى أحد المنتزهات وفي نهاية ذلك اليوم يجدون أنفسهم في قبضة الشرطة في خضم قضية إعتداء على فتاة صادف أنها في المنتزة تمارس رياضة الجري. تتوالى أحداث السلسل وتوجه لهؤلاء الخمسة تهم الاعتداء على الفتاة ويصدر الحكم عليهم بالسجن لمدد تتراوح بين خمس سنوات وخمسة عشر سنة.

الصدمة التي سببها المسلسل في الرأي العام الأمريكي على وجه الخصوص هي ان هؤلاء الخمسة كانوا ينكرون أي علاقة لهم بالفتاة المعتدى عليها، ويوضح المسلسل أساليب المحققين الأمريكيين الملتوية لإقناع هؤلاء الأطفال وأهاليهم بقبول التهم ووعودهم الواهية بالإفراج عنهم أو السجن تحت شروط مخففة، وما تبيّن لهم لاحقاً أنهم تعرضوا لخديعة المحققين وألبسوا على إثر اعترافاتهم المصورة الأحكام الصادرة بحقهم، رغم عدم وجود أدلة مادية تدينهم وعدم ارتباط الأدلة المأخوذة من مسرح الجريمة بأي أحد منهم، إلا إن تغليب المصالح السياسية في ذلك الوقت أدى لإلصاق التهم بهم لإراحة الرأي العام وقتها وإنهاء القضية بخمسة متهمين من الأطفال دون أدلة كافية سوى إعترافاتهم المصورة.

بعد نحو ثلاثة عشرة سنة من الواقعة يتم القبض على أحدهم في قضية إعتداء مشابهة ويعترف بأنه مرتكب جريمة الاعتداء قبل أكثر من عشر سنوات مما يبرأ ساحة الأطفال الخمسة الذين دخلوا إلى السجن أطفالاً وخرجوا شباناً يافعين طحنتهم رحى السجن بما تحمله من مآس وآلام، ولكن بعد ماذا؟ أغلبهم قضى فترة عقوبته أو يكاد، ما الذي ستقيدهم البراءة فعلياً بعد قضاءهم كل هذه المدة في السجن وهم أبرياء.

بالطبع لا يعتبر النظام القضائي الأمريكي أنموذجاً للعدالة، بسبب طبيعة تكوين النظام السياسي والمجتمعي الذي يحاول حصر الأمريكيين من أصول إفريقية ولاتينية في مايشبه الكانتونات تزيد فيها نسب الفقر والجرائم وتجارة المخدرات لغايات معروفة، كما أنها ليست القضية الأولى التي يقضي فيها أمريكيون من أصول إفريقية ولاتينية عقوبات بالسجن لسنوات طويلة وبعدها يتم تبرأتهم مما نسب إليهم من تهم.

وأتذكر إحدى القضايا تمّ فيها تبرئة مواطن أمريكي من أصول إفريقية مما أسند إليه من تهم أدت إلى الحكم عليه بالسجن لمدة 30 سنة. إعلاء المصالح السياسية على الحقائق القضائية ووضع توجه الرأي العام في مكانة أعلى من العملية القضائية بالبحث عن الحقيقة يؤدي إلى عدم الوصول إلى الحقيقة والانتهاء بخاتمة ظالمة كما في الحالة التي صورها المسلسل.

ذلك يحث في الدولة التي تعتبر كبرى الديمقراطيات في العالم فماذا عن دول أخرى أقل بكثير حظاً بالديقراطية.

في لقاء مع هيئة الكهرباء

«تقدّم» تبحث قضايا التعرفة واحلال البحرينيين

وسط ما يدور من حديث حول تعرفة الكهرباء والماء والذي احتل مساحة مهمة من اهتمامات مختلف الشرائح في البحرين، التقت نواب كتلة «تقدّم» البرلمانية بالرئيس التنفيذي لهيئة الكهرباء والماء الشيخ نواف آل خليفه، وجرى التباحث حول ضرورة تقييم ومراجعة كيفية احتساب التعرفة، خاصة بعد أن اثير جدل لم ينته بعد حول مدى دقة العدادات الرقمية الجديدة التي باشرت في اعتمادها هيئة الكهرباء والماء، وخلال اللقاء أفاد مسؤولو الهيئة أن لجنة التحقيق التي أمر ولي العهد بتشكيلها، لاتزال مستمرة في استكمال عملية التحقيق حول كل ما اثير بشأن هذه القضية، على أن تعلن بعدها سيعلن بعدها الإجراءات التصحيحية المطلوبة.

علما ان اجتماع «تقدّم» مع المسؤولين في الهيئة قد ركز في جانب مهم منه على ضرورة أن تعمل الهيئة على احلال العمالة البحرينية محل العمالة الأجنبية، خاصة وأن هناك أعداداً كبيرة من الأجانب يعملون حاليا في مختلف اقسام الهيئة، وتبرز الحاجة لسرعة اسهام هيئة الكهرباء والماء بالاعتماد على العناصر البحرينية اسهاما منها في حل جزء مهم من معضلة البطالة في صفوف الشباب من الباحثين عم عمل والتي تعاني منها البلاد بشكل متزايد.

وأكدّت الكتلة التي سلمت للمسؤولين في الهيئة ملفات لبعض العاطلين البحرينيين من ذوي التخصصات التي تحتاجها الوزارة إلى رئيس الهيئة، إسهامًا منها في إيجاد حلول لمعضلة البطالة، والرقابة على أداء السلطة التنفيذية.

قرب نهاية عقود 130 طبيبا بحرينيا .. والمصير مجهول

كشف النائب يوسف زينل، عن وجود 130 طبيبا بحرينيا يعملون كمتدربين وبعقود مؤقتة في المستشفيات والمراكز الحكومية، وهم اليوم أمام هاجس انتهاء عقودهم بتاريخ 30 سبتمبر المقبل دون أن يكونوا على علم بمصيرهم بعد هذا التاريخ.

وأوضح: عمل هذه المجموعة ممول من صندوق العمل (تمكين)، وهم يعملون منذ العام 2015 دون مزايا وظيفية أو حقوق تأمينية تضمن مستقبلهم.

وشدّد زينل على ضرورة تثبيت أفراد هذه الدفعة في مواقعهم، خصوصا مع حاجة المستشفيات الحكومية للكادر الطبي إثر خروج عدد كبير من الأطباء ضمن برنامج التقاعد الاختياري.

وتابع: جميعنا يعلم حجم النقص في الكادر الطبي الذي يعاني منه القطاع الصحي الحكومي وهو الأمر الذي ألقى بظلاله على مستوى جودة الخدمات الصحية المقدمة، بين ذلك مشكلة المواعيد المزمنة والتي ما زالت تعطى للمرضى وتتأخر وقد تصل فترة انتظار المريض إلى عام.

وواصل: ضمن التوجه لتعزيز البحرنة سواء من قبل المجلس النيابي والحكومة، فإننا نشدد على أهمية إحلال البحرينيين محل الأجانب، لافتا إلى وجود الفرصة لتفعيل ذلك عبر إحلال هذه المجموعة (130 طبيبا) مكان الأجانب، ونحن على علم بحجم وجود القوى العاملة الأجنبية الطبية في القطاع الصحي الحكومي.علمًا بأنه توجد دفعات أخرى التحقت بالعمل في القطاع الصحي الحكومي وفق عقود مؤقتة تعود للعام 2017 و2018، ومن المهم عدم تركهم يواجهون ذات المصير.

6 نواب لوزير التربية: انشر نتائج البعثات أو ستساءل برلمانيا

طالب ستة نواب، بينهما عضوا كتلة «تقدّم» عبدالنبي سلمان وفلاح هاشم وزير التربية والتعليم الدكتور ماجد بن علي النعيمي اعتماد الشفافية الكاملة في نشر نتائج توزيع البعثات لهذا العام وذلك بنشر اسماء المستفيدين مقرونه بمعدلاتهم الاكاديمية.

واعتبر النواب أن هذه الخطوة من شأنها تعزيز مبدأ الشفافية التي تتبعه وزارة التربية والتعليم واعلنت عنه سابقا، وكذلك إنهاء أي جدل او استغلال او توظيف لهذه العملية التي تطال المتفوقين من ابناء البحرين بكافة اطيافهم ومشاربهم. كما أكدّوا أن امتناع الوزارة عن نشر هذه المعلومات سيثير الكثير من علامات الاستفهام وسيشكل مادة للطعن في مصداقية وعدالة توزيع البعثات الدراسية.

وجاء في البيان الذي أصدره النواب الستة بهذا الخصوص: ان عدم استجابة وزير التربية والتعليم لمطلب الشفافية المحق، يضع النواب في موقف ملزم لإستخدام الادوات الدستورية تفعيلا للدور الرقابي، وذلك عبر توجيه الأسئلة البرلمانية الملزمة دستوريا او تشكيل لجنة تحقيق اذا ما استمرت الوزارة في سياسة تغييب البيانات والمعلومات في هذا الشأن.

وختم النواب بيانهم بأن مستقبل البحرين يكمن في تساوي الفرص واتباع معايير العدالة والشفافية وأن مراقبة مؤسسات الدولة والتأكد من اتباعها لهذه المبادئ هو من صلب عملهم النيابي ولا تهاون فيه على الاطلاق.

وبالإضافة لسلمان وهاشم وقعّ على البيان كل من النواب كلثم الحايكي، ممدوح الصالح، محمود مكي البحراني، عمار آل عباس.

يوسف زينل يدعو لتفعيل الأدوات الرقابية في وجه (تغوّل) بعض الوزراء

قال عضو كتلة "تقدّم" النائب يوسف زينل، بصفته عضوا في لجنة التحقيق النيابية في البحرنة: كنواب وفي مواجهة تغول بعض الوزراء وعدم تعاونهم مع السلطة التشريعية، فإننا مع تفعيل كل الأدوات الرقابية وفق أطر الدستور واللائحة الداخلية.

وعن سير عمل لجنة التحقيق في البحرنة: "نحن مع تحقيق المستويات المطلوبة من البحرنة بالتوافق مع السلطة التنفيذية، والعمل على إيجاد حلول مستدامة وغير آنية، لاستيعاب أعداد الباحثين عن عمل وتوليد الوظائف عبر تشجيع الاستثمارات، وتوظيف المبالغ المليونية المتراكمة في صندوق التعطل باتجاه إطلاق مشاريع تسهم في خلق الوظائف لأبناء البلد وتنشط اقتصاده.

وأضاف: من أجل تحقيق ذلك، المطلوب توحيد الجهود والمواقف النيابية التي تعزز من دور مجلس النواب وتنأى به عن الصراعات الفئوية، وفقا لتعبيره.

وبراي زينل، فإذا تكلمنا عن البحرنة فإننا مقبلون على مرحلة صعبة، والمطلوب أن نتخذ مسارا متوازنا بين فرض البحرنة وتعزيزها عبر تشجيع المستثمرين على النظر للبحريني بوصفه خيارا مقدما في التوظيف والالتزام بما تضمنه برنامج عمل الحكومة في التأكيد على أن البحريني هو الخيار الأفضل، وبالتالي فإن الحوار الموضوعي الواسع هو المطلوب حاليا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية وبمشاركة منظمات المجتمع المدني الفعالة والمعنية بالبطالة والبحرنة بهدف بلورة رؤى وبرامج فاعلة تصب في صالح الوطن والمواطن وتخلق بيئة تنموية مستدامة واقتصاد وطني قوي.

رد هيئة الكهرباء والماء بشأن أسباب ارتفاع الفواتير غير مقنع

على صعيد آخر أكد عضو «تقدّم» يوسف زينل إن البيان الصادر عن هيئة الكهرباء والماء بشأن أسباب ارتفاع الفواتير، لم يكن كافيا لإيقاف شكاوى المواطنين، واصفا البيان بالضعيف وغير المقنع.هنالك من يتحدث عن زيادة بمقدار الضعف، ومرد هذا بدون شك ليس لزيادة الاستهلاك ولا للافتقار للعازل الحراري ولا حتى لتشغيل المكيفات، كما هو قول الهيئة.

وتابع زينل: "صدر بيان الهيئة وبعده ازداد الحديث الأهلي عن ارتفاع الفواتير وهذا يعني أن البيان لم يكن كافيا، ومطلبنا أن تسارع الهيئة في اتخاذ الإجراءات المناسبة بما في ذلك تشكيل لجنة متخصصة على وجه السرعة لبحث الأمر ووضع حلول، وعلى الهيئة أن تعلن عن نتائج ذلك قريبا.

وقال زينل: نحن، كنواب، لسنا مقتنعين بتبريرات الهيئة المهلهلة، في ظل الزيادات التي حدثت للعديد من المستهلكين، لذا يتطلب الأمر البت في شكاوى الناس وتقديم الصورة الواضحة لمجلس النواب.

مطرقة البرلمان

ماذا يريد الناس من مجلس النواب؟!

عبد النبي سلمان

سؤال يختزل مساحة مهمة وواسعة من تطلعات الشارع البحريني تجاه الدور المنتظر من مجلس النواب، وهو سؤال مفتوح على اتساع افق ووعي ومزاج وفهم الناس بشكل عام لدور، بل أدوار، منتظرة من المجلس تجاه الإرتقاء بالعمل التشريعي والرقابي، وبالتالي السياسي في البحرين. لكن تلك الأدوار والمهمات كثيرا ما تصطدم هي الأخرى بحقيقة يعرفها الجميع، حتى من يتوارون بعيدا عن الإجابة على ماهية وحجم صلاحيات الغرفة المنتخبة تحديدا، والتي تشوبها بكل تأكيد معوقات حقيقية حول جدية وعدالة التمثيل على المستوى الشعبي، الذي يفترض أن تتجلى فيه الإرادة الجامعة للشعب بكل شرائحه، وليس فقط للشارع السياسي بشقيه المعارض والموالي، بحسب التعابير الدارجة منذ فترة الأحداث الأخيرة حتى هذه اللحظة.

هنا تختلف النظرة وتتباين حول مهمات مجلس النواب ومدى قدرته على امتلاك ناصية التشريع والرقابة بكل جدارة، وبعيداً عن ارهاصات ومخاوف طالما لازمت مختلف الأطراف نظرا لاعتبارات سياسية خالصة، هي بالطبع ليست وليدة الوضع الراهن بكل تأكيد، حيث انها ممتدة ربما منذ الانقطاع القسري لتجربة الحياة البرلمانية في اغسطس 1975 وحتى قبل ذلك بكثير، على خلفية غياب الحد الأدنى المطلوب من التوافق السياسي الذي ترافق مع بداية تأسيس الدولة الحديثة في البحرين.

لذلك تصبح الاجابة على سؤال:ماذا يريد الناس من مجلس النواب؟ أكثر تعقيدا وتداخلا، باعتبار المجلس كمؤسسة من المفترض ان لها من الصلاحيات الواسعة ما يؤهلها فعلا للقيام بأدوارها المنوطة، وبما يجعلها قادرة على إقناع الناس بحضورها المؤثر في المشهد العام، وبعيداً أيضا حتى عن المزايدة على قدراتها الاستثنائية من جانب لازال متوجسا، وان لم يفصح عن ذلك، من تبعات اتساع تلك الصلاحيات ومآلاتها على امتيازاته ومصالحه، وعلى الجانب المناوىء نتابع حديثا لم يتوقف على عجز هذه المؤسسة وحتى عدم جدواها كما يراها بعض من استطاب لهم يوما التعويل على هذا الدور والترويج له لمصالح وقتية وبراجماتية عابرة، لم تعط بالاً ولو لمرة واحدة لنظرة سياسية اوسع وأشمل واكثر وعيا بالامكانيات المحدودة المتاحة امام العمل السياسيي في البلد، على الرغم من تناقض قناعاتهم المكبوتة في فترات محددة من العمل السياسي، مسايرة منهم لطموحات محددة أو لتحالفات لم تكتمل!

وسط هكذا أجواء ملبدّة ومشحونة بدعوات الشك واستمرار غياب التوافق والتنافر وانتظار الحلول التي لا تأتي عادة، تبقى قضايا البحرين وناسها بمختلف شرائحهم معلقة ومؤجلة على الدوام دون حلول واجابات، فيما تصبح المزايدة على تلك القضايا سمة استرزاق ومناكفة سياسية بائسة لدى البعض ممن يجيدون العوم ولو حتى نحو المجهول، متخبطين في متاهات ودروب حلزونية ليس لها نهاية، اضحت تجتر خيباتها بكل أسف على حساب معاناة البسطاء الذين تطرب قسم كبير منهم كلمات وشعارات سرعان ما يكتشفون زيفها، فيما تظل قضايا حقوق الانسان ومعاناة الأفرد والمحكومين والمهجرين والأسر مؤجلة تبحث عن حلول وسط رؤية غائبة وعدمية، كما تبقى مصالح العمال والكادحين والنقابات والفقراء والتجار والصيادين وغيرهم، أسوة بقضايا البطالة والتمييز والبعثات والتجنيس وضياع الهوية الجامعة واتساع رقعة الفقر وتحلل الطبقة الوسطى عرضة لمساومات وحتى تسويف وابتزاز أحيانا، نتيجة اختلال ميزان العدل الاجتماعي وتغييب مساحة مهمة من وعي الشارع نتيجة هذا التداخل الفوضوي الممض.

لذلك تبقى الإجابة المرجوّة عن دور مجلس النواب والمنتظر منه بكل أسف رهناً بعبثية المشهد العام ونوايا ودرجات وعي واخلاص الأطراف المعنية، ومن بينها كل القوى السياسية المؤثرة أو ذات المصلحة، بضرورة الانصياع للغة تأخذ في الاعتبار كل ما يدور لدى الشارع من هواجس ومخاوف وتراجعات، وما يحيط بالتجربة ذاتها من ارهاصات وتعدد قوى التأثير المعيقة والمعرقلة لطموحات شعب وقوى سياسية تريد جميعها، رغم تباينها، بكل مشروعية أن تعانق السماء.

عبد النبي سلمان يبحث مع وزير المواصلات والرئيس التنفيذي لـ«باس»

البحرنة في مبنى المطار الجديد

تابع نواب كتلة «تقدّم» من خلال نوابها خلال الفترة القليلة الماضية مع المسؤولين في وزارة الاتصالات وشركة خدمات مطار البحرين (باس) الإسهام المنتظر من المسؤولين في الوزارة والشركة في إعطاء أولوية خاصة لبحرنة النسبة الأكبر من وظائف مبنى المطارالجديد، خاصة ان الوزارة سبق أن أعلنت أن هذا المطار سيستوعب اكثر من 5800 وظيفة. وفي هذا الخصوص تباحث عضو الكتلة النائب عبد النبي سلمان النائب الأول لرئيس مجلس النواب مع المسؤولين في كل من وزارة العمل من جهة ومع وزير المواصلات سعادة الوزير كمال احمد ومع الرئيس التنفيذي لشركة (باس) السيد سلمان المحميد في اجتماعين منفصلين حول ضرورة إعطاء أكبر فرصة ممكنة للكفاءات البحرينية بإدارة وتشغيل هذا المرفق الحيوي باعتباره واجهة البحرين أمام دول العالم، وأعلنت "تقدّم" أنها ستواصل متابعة هذا الملف في الفترة القادمة.

اتفاق يحفظ حقوق 250 من العاملين البحرينيين في مزارع الدواجن

قاد النائب عبد النبي سلمان النائب الأول لرئيس مجلس النواب وعضو كتلة تقدّم، مفاوضات بين ممثلين عن 21 من أصحاب مزارع الدواجن وشركة ديلمون للدواجن، توّجت في نهاية المطاف باتفاق حظي بموافقة جميع الأطراف، يحفظ حقوق أكثر من 250 من العاملين البحرينيين في شركة ديلمون ومصالح اصحاب المزارع. علمًا أن هذه القضية قد جلبت العديد من المخاوف على مستقبل الشركة وأصحاب المزارع، حين هدّد اصحاب المزارع بالتوقف عن التعامل مع الشركة على خلفية الخلاف الذي جرى حول آليات احتساب الأسعار وبيع العلف وأمور فنية أخرى تتعلق بالمصالح المباشرة لأصحاب المزارع، حيث امتد الخلاف لأكثر من ثلاثة شهور، الأمر الذي كان سيتسبب في ارتفاع مباشر وكبير في أسعار الدجاج بالنسبة لعموم المستهلكين في البحرين، الذين يعانون اصلا من غلاء الأسعار، علاوة على تهديد مباشر للعمالة البحرينية في شركة ديلمون، الشركة الوحيدة العاملة في مجال عملها في السوق المحلي.

هذا وقد لقي توقيع الاتفاق النهائي ترحيبا كبيرا من العاملين في الشركة عبرت عنه نقابة العاملين فيها من خلال تواصها المباشر مع نائب رئيس مجلس النواب، مثمنين ما بذل من جهود مخلصة توّجت بهذا الاتفاق الذي يضمن استقرار الأوضاع في الشركة لمصلحة الجميع.

طالبت بإنصاف أبناء البحرين المتفوقين

«تقدّم» تطالب بتشكيل لجنة تظلمات مستقلة ونشر معدلات ورغبات المتفوقين للرأي العام

رفضت كتلة تقدم البرلمانية استمرار وزارة التربية والتعليم في اتباع سياسات طالما تسببت في الكثير من اللغط، وقوبلت بالرفض من مجاميع واسعة في الشارع البحريني، و في مقدمتهم أولياء أمور الطلبة المتفوقين بشأن سياسة توزيع البعثات والمنح، والمعايير المختلة التي رافقتها لسنوات، ولازالت.

فبعد إعلان وزارة التربية والتعليم مؤخراً عن الانتهاء من تخصيص البعثات والمنح في الثامن من الشهر الجاري، وبعد ظهور نتائج توزيع تلك البعثات والمنح ضجت وسائل التواصل الاجتماعي والرأي العام في البحرين بالكثير من الاحتجاجات والشكاوى من قبل الغالبية العظمى من المتفوقين دراسياً وأولياء أمورهم، رافضين معايير توزيع وتخصيص البعثات والمنح، وهذا الأمر بات يتكرر منذ عدة سنوات، والذي تسبب بحرمان المئات بل الآلاف من المتفوقين والمتفوقات من رغباتهم في بناء مستقبلهم التعليمي والمهني وفقا لقدراتهم العلمية.

فقد انتهجت وزارة التربية منذ عدة سنوات معايير فريدة من نوعها، لا تساعد على تحقيق العدالة والإنصاف في أبسط صورها، فقد باتت تعتمد في سياسة تخصيص البعثات والمنح على نتيجة الطالب الدراسية، إضافة إلى نتائجه في ما يسمى باختبار القدرات والمقابلة الشخصية، التي تجريها لجنة مختصة، وذلك بواقع 60٪ للمعدل الدراسي فيما توزع نسبة ال 40٪ المتبقية بالتساوي على المقابلة الشخصية وامتحان القدرات، والتي غالباً ما تكون في غير صالح معظم المتفوقين دراسياً، وهى نتيجة لا تأخذ في الاعتبار المجهودات الكبيرة التي بذلها الطلبه طوال ثلاث سنوات من دراستهم الثانوية، وتحت إشراف مباشر من الوزارة نفسها؛ لتعيد بذلك تغيير النتيجة من خلال مقابلة قصيرة، تقوم بها اللجنة المختصة التي كثيراً ما يلف عملها الغموض وانعدام الشفافية، الأمر الذي يناقض رؤية الوزارة المعلنة التي طالما تحدثت عنها وهي أهمية الجدارة العلمية كوحدة قياس.

فهذه السياسة المتبعة في توزيع البعثات والمنح لها تأثير سلبي على فرص الطلبة ومستقبلهم التعليمي والمهني، وتحرم الوطن من قدرات خيرة أبنائه وشبابه المتميزين بقدراتهم ومستوى تحصيلهم العلمي.

إن إصرار وزارة التربية والتعليم على الاستمرار بتلك المعايير المرفوضة، والإبقاء على هذه اللجنة والدور المناط بها يتناقض في جوهره ونتائجه الوخيمة مع ما دأبت الوزارة بالحديث عنه. وهو المستوى الدراسي العالي، ومخرجات مراحل التعليم الثلاث المتوافق مع المعايير العالمية وفق تصريحات مسؤوليها. فصارت هذه اللجنة هي الرقيب على نتائج الطلبة العلمية الحقيقية، ليعاد غربلتها وفقا لآلية غير شفافة، وغالباً ما يتم استبعاد الغالبية العظمى من المتفوقين بسببها لأسباب غير مقبولة، ولا تحقق العدالة والإنصاف للسواد الأعظم من المتفوقين من أبناء الوطن الذين عادة ما تخصص لهم بعثات أو منح بعيدة عن رغباتهم وميولهم الشخصية والعلمية، وكأنها لاتعترف بمستوى شهادات هي مسؤولة عنها أساساً.

إننا في كتلة "تقدّم" البرلمانية نناشد المسؤلين في وزارة التربية والتعليم، العمل بمسؤولية وطنية لمغادرة أخطاء الماضي وإعادة إنصاف جميع أبناء البحرين من المتفوقين والمتفوقات وفقاً لآليات توزيع عادلة معلنة وشفافة، على أن تشكل سريعاً لجنة تظلمات مستقلة ومحايدة، وأن تعلن المعدلات العلمية التراكمية للطلبة المتفوقين ورغباتهم الأولى بكل وضوح أمام الرأي العام، بما يضمن إنصاف المتفوقين ومستقبلهم الأكاديمي، ومصالح أسرهم الذين تكبدوا لسنوات طوال معانات مريرة ماديا ومعنويا متأملين أن يصل أبناءهم لأعلى مراتب العلم والعمل لخدمة حاضر ومستقبل وطننا البحرين.

فلاح هاشم: يجب مراجعة التشريعات التي «تشرّعن» للبطالة

طالب النائب فلاح هاشم إعادة النظر في العديد من التشريعات التي سنت خلال الفترة الماضية والتي ساهمت في ارتفاع نسبة البطالة في البحرين. وأشار إلى مقترح كان قد تقدّم به في بداية الدور الماضي، وما زال في عهدة لجنة الخدمات بمجلس النواب نصّ على أنه (يجب على كل صاحب عمل الرجوع إلى الوزارة ومراجعة الكشوف الخاصّة بالباحثين عن العمل، وفي حالة توافر الأيدي العاملة الوطنية المتخصصة المناسبة لشغل الوظيفة يتم توظيفها.)

وأردف هاشم قائلا: وفق ما تظهره الإحصائيات، وما يعايشه المجتمع عامة، والعاطلون خاصة فإن هنالك ما يشير إلى طغيان العمالة الوافدة وحصولها على معظم فرص العمل التي يولّدها سوق العمل في القطاع الخاص، وكذلك بنسبة غير قليلة من الوظائف في القطاع العام.

وأضاف إننا نأمل أن يتمّ تصحيح التشريعات اسابقة التي مررت تحت عنوان ما يسمى تحرير سوق العمل، بدءاً مما تم التخلي عنه في قانون العمل رقم 36 لسنة 2012 والذي حذف منه ما كانت تنص عليه المادة 13 في قانون العمل لسنة 1976 التي تنص على أولوية البحريني في التشغيل، وما تبعه من التخلي عمليا عبر مجموعة من القرارات الخاصة بنسب البحرنة في قطاعات معينة، وضرورة اقتصار من يعملون في المرافق العامة على البحرينيين في بعض الوظائف وصولا إلى تشريعات هيئة تنظيم سوق العمل الأخيرة مثل (البحرنة الموازي)، و(التصريح المرن)، وقبلها عدم التزام هيئة تنظيم سوق العمل بوضع خطة وطنية لسوق العمل كما نص عليها القانون، ومخالفته بشكل صريح، وبتجاهل للهدف الذي أنشأت من أجله، واقتصرت على قرارات لمعالجات غير حصيفة لممارسات أدت إلى إغراق سوق العمل بعمالة سائبة

نتجت عن هشاشة سوق العمل. وآن الأوان لكي نفكر جدياً في وضع آلية للمراقبة والتنفيذ، ولا نقتصر على التشريع.

تجدر الإشارة إلى أن جوهر المادة التي تضمنها المقترح منصوص عليها في قانون الخدمة المدنية، في المادة (11) التي تنص على – بخصوص شروط التعيين – أنه يشترط فيمن يعين في إحدى الوظائف التي تسري عليها أحكام قانون الخدمة المدنية أن يكون متمتعا بالجنسية البحرينية، مع وجود استثناء من هذ البند بأنه يجوز شغل الوظيفة بغير البحرينيين بطريق التعاقد في حالة تعذر الحصول على المرشحين البحرينيين الذين يستوفون شروط شغل الوظيفة المطلوبة، هذا عدا ما نصت عليه المادة " 13" من الدستور، وهي كما يلي:

(أ- العمل واجب على كل مواطن، تقتضيه الكرامة ويستوجبه الخير العام، ولكل مواطن الحق في العمل وفي اختيار نوعه وفقا للنظام العام والآداب.

ب- تكفل الدولة توفير فرص العمل للمواطنين وعدالة شروطه.)

وأكدّ هاشم أنه ومع وجود هذا التشريع فإن هناك عدداً كبيراً من العاملين الوافدين في قطاعات مثل التعليم والصحة والكهرباء والأشغال، ولعشرات السنين على الرغم من توفر العنصر الوطني المتعلم، والذين يُعطل توظيفهم وإحلالهم محل الوافدين بحجج واهية، كعذر الخبرة. وكأن المسؤولين عن هذه القطاعات غير معنيين بتدريب البحرينين وتأهيلهم وتمكينهم من الخبرات العملية، بل إن هذه الحجة التي يتدثر بها بعض أصحاب القرار في إدارات التوظيف في الدولة هي دليل على القصور في أداء واجباتهم بتدريب البحريني وتأهيله وتمكينه، وما نشهده الآن من بقاء الآلاف من الخريجين بدون عمل مع شغل تخصصاتهم بوافدين في وزارات الدولة وهيئاتها هو مغاير لما تصرح به الجهات المعنية عن مستوى التعليم والتدريب بالمستوى العالي للخريجين من هذه البرامج التعليمية والتدريبية، سواء من المؤسسات والجامعات والمعاهد التي تشرف عليها وزارة التربية أو التي تعدّها وتشرف على تنفيذها تمكين وغيرها من المؤسسات الرسمية عدا الأهلي.

واختتم فلاح هاشم تصريحه قائلا: نحن في أمس الحاجة إلى صدق النوايا وآلية مراقبة دقيقة وعملية؛ لمعالجة موضوع البطالة وتشغيل البحرينيين.

زينل يدعو إلى تشكيل لجنة تظلمّات مستقلة حول البعثات

قال عضو كتلة «تقدّم» النائب يوسف زينل، وهو يعلق على ما يثار بشأن توزيع وزارة التربية والتعليم للبعثات والمنح المالية على المتفوقين من خريجي الثانوية العامة: إن مطلب الشفافية المرفوع هو مطلب مشروع، ولا ينبغي للوزارة أو أية جهة اعتبار ذلك إساءة للوزارة نفسها أو للبلد، فنحن أمام موضوع خدمي تعليمي بحت، وأمام شكاوى تتكرر سنويا وفيها يرى أصحابها أن معايير توزيع البعثات ليست عادلة ومنصفة، وعليه يجب النظر في ذلك بعين متجردة عن كل تهويل.

وواصل: لسنا هنا في موقف المعارضة للوزارة التي قد تكون مصيبة في ما تقوم به من تطبيق لخطة التوزيع السنوية للبعثات، لكننا أيضا لسنا في وراد صم الآذان عن الشكاوى المتكررة، لذا أقترح وكحل عملي لحلحلة أية شكاوى إنشاء لجنة تظلمات مستقلة تتولى استلام الشكاوى والنظر فيها ثم مطابقتها مع المعايير المعتمدة على أن يتم كل ذلك بعد نشر أسماء الطلبة بمعدلاتهم وبعثاتهم للرأي العام المحلي.

المواطنة والقوى الوطنية في البحرين:

تحديات مشروع الدولة الحديثة (٢- ٢)*

غسان الشهابي

أبرز معيقات تحقق المواطنة في البحرين من زاوية التيارات المدنية

يحدد البارزون في الجمعيات السياسية المدنية – من الذين تمت مقابلتهم – وجوهاً واضحة للأسباب التي عرقلت وما زالت تعرقل تحقق المواطنة كما هو منصوص عليها عالمياً. وتتلخص أهم هذه الأسباب في:

١. التمييز:

تزعم الجمعيات السياسية المعارضة في البحرين وجود عملية تمييز على أكثر من صعيد وفي أكثر من اتجاه. والتمييز واحد من الملفات التي تركز عليها المعارضة البحرينية في الوقت الذي تنفي السلطات الرسمية وجود هذا النوع من الممارسات. وعند الحديث سياسياً عن التمييز في البحرين، فإنه ينصرف إلى التمييز المذهبي دون الأنواع الأخرى من التمييز (النوعي أو العرقي أو اللوني إلخ...)، وهذا القصر والتركيز «له تبعاته الخطيرة، لأنه يؤدي – في المقابل – إلى «الاحتماء المذهبي»، فبدل أن يتكتل المجتمع تجاه السلطات التي تمارس التمييز ضد بعض فئاته، يذهب الاحتماء الطائفي إلى أن يعمل المجتمع ضد نفسه من خلال تكتلات تقوّض مفاهيم المواطنة مجتمعياً ليس من خلال عملها ضد الحكومة، بل عملها ضد المجتمع ككل».

الشكوى من التمييز كانت مدار الحراك الذي نشط في تسعينات القرن الماضي،»ولا يزال التمييز موجوداً في الوظائف» حسب حسن العالي، والتمييز ليس مذهبياً فقط في رأي «وعد» بل يمكن أن يتمثل «في كل الأشكال المختلفة للمكونات المجتمعية، فهناك فجوة بين الكلام الرسمي والواقع، فالقبيلة لها دور مهم يمكن ملاحظته في تعيين الحكومة، وكذلك تشكيل القوى الأمنية والعسكرية التي تؤخذ من طائفة محددة».

تشير بعض أطراف المعارضة إلى وجود شبهة تمييز في البعثات الدراسية من قبل وزارة التربية والتعليم بزعمها أنها «تفتقد إلى الشفافية مما يسهّل توجيه أصابع الاتهام إلى الوزارة بالتمييز بين المواطنين».

وإزاء ما تعتقده الجمعيات المعارضة من وجود تمييز «رسمي» في عدد من المفاصل، تعتقد «وعد» بوجود ممارسات مجتمعية تصبّ في هذا الجانب، فقد «تم خلق جيوب للسنة وأخرى للشيعة في بعض الوزارات، وتركت جيوب أخرى للمنافسة المفتوحة سواء للتوظيف على أسس القبيلة أو العائلة أو المنطقة أو الولاء، أو المعرفة الشخصية، إذن مسألة الكفاءة في التوظيف، والتي تعتبر واحدة من أركان المواطنة، غائبة في هذه المعادلة».

٢. التجنيس:

ترى القوى السياسية أن التجنيس الذي جرى في التسعينات، وازدادت وتيرته منذ «عام الإصلاح» من شأنه أن يقدح في مفهوم المواطنة وقيمها. وفي حين ليست هناك أرقام واضحة في عدد من تم إكسابهم الجنسية البحرينية في السنوات مدار الحديث، إلا أن بعض أطراف المعارضة تشير إلى أن العدد يتجاوز 140 ألفاً. وسواء كان هذا العدد صحيحاً أم تقديرياً، فإن التجنيس في رأي المعارضة والموالاة على السواء من الأمور التي يصعب التعامل معها، و»لا يستطيع أي مواطن أن يوافق عليه أو يتقبله مهما وضعت من تبريرات»، ميثاق العمل الوطني مثلاً ترى بأن التجنيس يجب أن يقوم على معطيات معينة تتمثل في ماذا أعطى طالب الجنسية وما الذي يمكن أن يعطيه للوطن، «أما إذا كان التجنيس من أجل الحشد أو لعملية مرحلية فقط، فهذا أمر خطير، كون «التجنيس، ألحق الضرر الكبير في قضية المواطنة، إذ الجميع منزعج اليوم منها»، فقد «صارت شريحة مهمة من مكتسبي الجنسية خارج قانون الجنسية، عصيّة على الذوبان في المجتمع، فهي جزء ظاهر من المجتمع على السطح، ولكنها غريبة عنه في العمق، لأن المعيار الذي تمت عليه عملية التجنيس، هو التجنيس المباشر، بينما القانون يشير إلى أن يحق للعربي التقدم بطلب الجنسية بعد مرور 15 عاماً على وجوده في البلد، والأجنبي 25 عاماً»، والهدف من هذا التوجه بحسب الجمعيات «ليصار إلى إعادة هندسة المجتمع من أغلبية شيعية إلى تركيبة «متوازنة»، والآن ربما تم التوصل إلى نقطة التساوي أو التوازن ما بين الطائفتين، مع وجود طائفة ثالثة اليوم».

ومع ذلك، تطالب القوى السياسية المعارضة بإيجاد مخرج قانوني وإنساني لهذه المسألة، بحيث تجري معالجة الوضع بما يخفف من «المعاناة» من جراء ما حدث، وعدم تحميل مكتسبي الجنسية أعباء هذه الحلول، مع إقرار بإمكانية إعادة مناقشة المدد الزمنية التي وضعها قانون اكتساب الجنسية البحريني في العام 1963، و»لكن الفترة المطروحة لاكتساب الجنسية كافية لذوبان هذا الراغب في الحصول على الجنسية البحرينية في ثقافة البلد وتاريخها وخصوصيتها، وبالتالي تكون مباشرته للحقوق والواجبات حينها غير مستنكرة».وفي رأي «وعد» فإن مسألة التجنيس في البحرين تختلف عن «البدون» في الكويت، حيث ينشأ من يطلق عليه لقب «البدون» في البلد ويكبر ولا يعرف له بلداً ولا أرضاً ولا هواء إلا هذا الذي عاش فيه، بينما المجنّس لم تنقطع صلاته بوطنه الأم، فلا يزال يتحدث بلسانه، ويتزوج من ذاك البلد، ويستثمر هناك، ويقضي إجازته فيه، لذا فإنه فعند معالجة هذا الملف فإن من لن تنطبق عليهم الشروط سيكون لديهم وطن يعودون إليه،على ألا تغادر الحلول لهذا الملف نطاق الدبلوماسية والإنسانية والعملانية، ويجب التزام الحذر حتى لا يتحول النقاش في هذا الملف إلى ما يمكن ينزلق به إلى الشحن وخطاب الكراهية.

في المقابل يرى بعض قياديي «التقدمي» أن الملف المقاوم للتجنيس «أدير في بعض مراحله بفكر طائفي مما عقّده وجعله في بعض مفاصله وكأنه «مظلومية» جديدة، بدلاً من معالجته في بعده الاجتماعي والاقتصادي والثقافي (...) فقامت بعض أطراف القوى السياسية، وخصوصاً الإسلاموية منها، بممارسات لا تمتّ للمواطنة، عندما كانت تردد النسبة المئوية ما بين الشيعة والسنة، وهي – كما يُتداول سابقاً – 75٪ إلى 25٪، وهناك من رفع هذه النسبة، وصار البعض أيضاً يلوّح بها تحت شعارات «السكان الأصليين»، الذين لهم استحقاقات سياسية تبعاً لنسبتهم العالية، وهذا الأمر يقدح في مفاهيم قارّة في المواطنة من أهمها المساواة أمام القانون».

٣. الدوائر الانتخابية:

كانت الدوائر الانتخابية التي طرحت في أول انتخابات تجرى بعد الإصلاح السياسي في 2002، من أهم النقاط

يتبع

طرأ في السنوات القليلة الماضية تطوّر آخر على الحياة السياسية في البحرين، إذ صدرت أحكام قضائية بحل عدد من الجمعيات السياسية المعارضة

يتبع

التي جعلت أربع جمعيات (مدنيتان وإسلامويتان) تعلن مقاطعة الانتخابات، ودخلت العملية السياسية في إرباك طيلة السنوات الأربع التالية حتى أعادت الجمعيات حساباتها وقررت الدخول في الانتخابات مجدداً في 2006 و2010.

ومع المشاركة في الانتخابات للدورتين المذكورتين، والنجاح الجزئي للجمعيات المعارضة (الإسلاموية) وعدم فوز أيٍّ من مرشحي الجمعيات المدنية في تلك الأثناء، يبقى هناك خلل من وجهة نظر «القومي» يتمثل «في عدم تمكين أعضاء مجلس النواب من ممارسة حقوقهم التشريعية والرقابية بشكل كامل من خلال وجود مصدّات من ممارسة هذه الصلاحيات، من خلال توزيع الدوائر الانتخابية، وهذا شكل آخر من أشكال الطعن في المواطنة لأن الدوائر وُزعت على أسس طائفية، إذن، المواطن ليس متساوياً في مسألة المواطنة من هذا الجانب».فلقد «سيطرت الحكومة على السلطة التنفيذية وبقيت السلطة التشريعية، وكان يكفيها سيطرتها على نصف السلطة التشريعية بتعيينها أعضاء مجلس الشورى، ولكنها أرادت السيطرة على كامل مخرجات العملية السياسية من خلال التحكم في مخرجات الدوائر الانتخابية».ويشير شريف في معرض حديثه إلى أنه في العام 2002 كانت الكتلة الانتخابية في الدائرة الأولى من المحافظة الشمالية تساوي عددياً جميع دوائر المحافظة الجنوبية.

٤. العملية السياسية:

طرأ في السنوات القليلة الماضية تطوّر آخر على الحياة السياسية في البحرين، إذ صدرت أحكام قضائية بحل عدد من الجمعيات السياسية المعارضة، ومن أهمها جمعية الوفاق الوطني الإسلامية، وذلك في 16 يوليو/تموز 2016، وجرى حلّها بما خلصت إليه المحكمة المدنية الكبرى إلى أن الجمعية «انحرفت في ممارسة نشاطها السياسي إلى حد التحريض على العنف وتشجيع المسيرات والاعتصامات الجماهيرية، بما قد يؤدى إلى إحداث فتنة طائفية في البلاد، فضلاً عن انتقادها لأداء سلطات الدولة – سواءً التنفيذية أو القضائية أو التشريعية – وبالتالي فقد انطوت عدواناً صارخاً على حقوق دستورية مقررة، كما انطوت على انحراف بوّاح في ممارسة نشاطها السياسي بمعزل عن المكانة التي تحظى أو يتعين أن تحظى بها في ظل قانون الجمعيات السياسية».

وتلتها في 21 يناير/كانون الثاني 2019 جمعية العمل الوطني الديمقراطي «وعد» وذلك عبر حكم محكمة التمييز، الذي ذكر بأن الجمعية أطلقت «وصف «شهداء الوطن» على جناة صدر في شأنهم حكم بات بالإعدام بعد استهدافهم

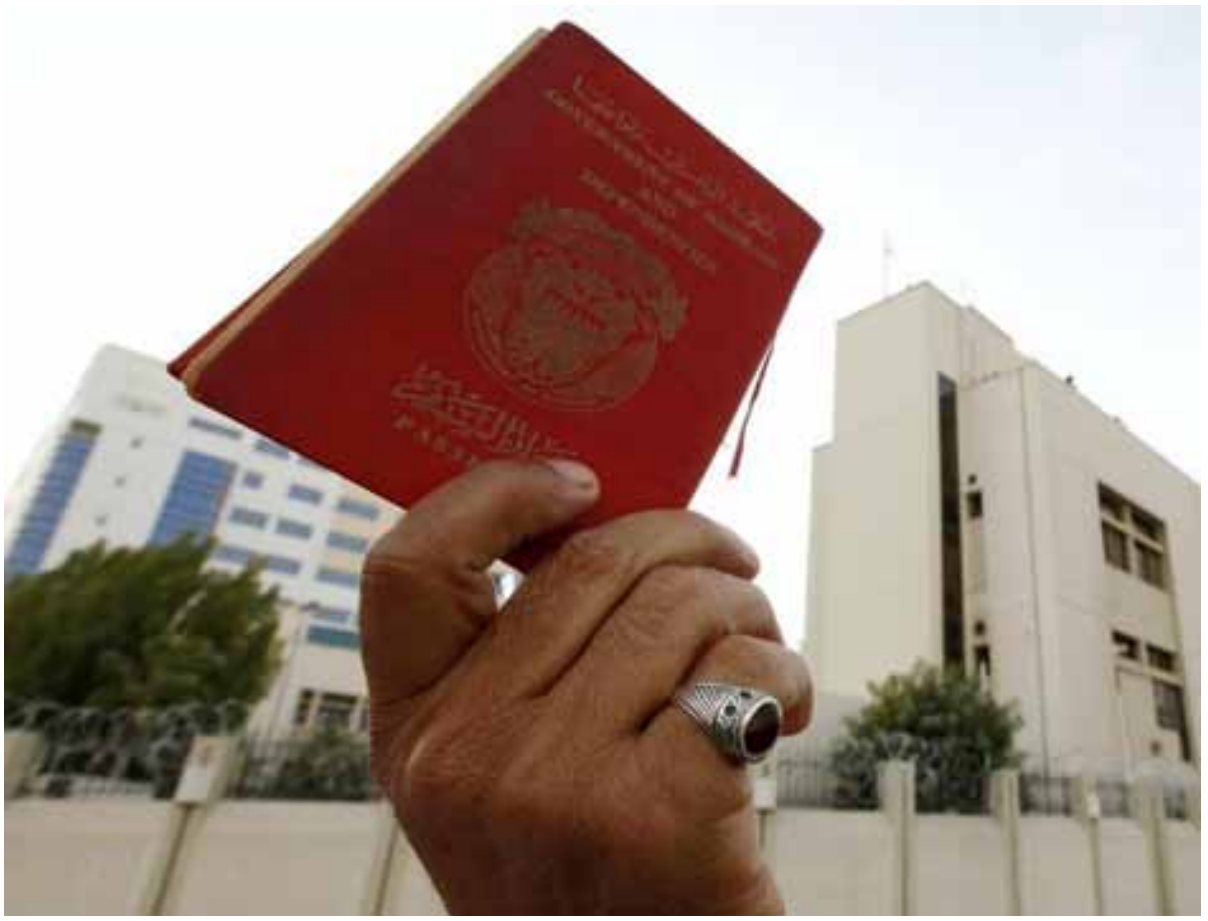

لقوات الشرطة بعبوة متفجرة نجم عنها مقتل ثلاثة من رجال الشرطة (...) وأكدت وقوفها وتضامنها مع جمعية «الوفاق الوطني الإسلامية» (...) فضلاً عن تضامن الجمعية المذكورة مع جمعيات أخرى و»رفضها لدستور 2002 واعتباره ساقطاً وأنه دستور غير شرعي».

سبق هذه الأحكام صدور القانون رقم (25) لسنة 2018 بتعديل المادة الثالثة من المرسوم بقانون رقم (14) لسنة 2002 بشأن مباشرة الحقوق السياسية، وأهم تعديل فيه هو منع الترشح لمجلس النواب لـ «قيادات وأعضاء الجمعيات السياسية الفعليين المنحلة بحكم نهائي لارتكابها مخالفة جسيمة لأحكام دستور المملكة أو أي قانون من قوانينها».

واعتبرت الجمعيات المدنية هذه الإجراءات مقلقة وقادحة في مفهوم المواطنة، وتعثراً في المسيرة الإصلاحية في البحرين التي بدأت مع بداية القرن «وليس هناك ما هو أوضح من شطب الجمعيات السياسية المعارضة من المشهد السياسي المحلي، ومنع أعضائها من الترشح للانتخابات النيابية. ففي أي مجتمع يواجه مصاعب داخلية، فإنه يواجهها بالمزيد من الديمقراطية للعلاج وليس بالبتر».

الأمر الذي انتقده الباكر في سياق حديثه عن تراجع العمل السياسي في البحرين، مشيراً إلى «تراجع الدعم الحكومي للجمعيات السياسية، وانسحاب هذا على كل الجمعيات، سواء كانت معارضة أو موالية، نشطة أم غير نشطة، فبعضها كان يقيم الفعاليات الرامية إلى تعزيز الولاء والانتماء للقيادة وللبلاد وسيادتها، ولكن بات الكل في سلة واحدة، فتم نسيانها، وبتنا نرسل الرسائل ولا يُردّ عليها، ونطلب مقابلات مع مسؤولين ولا يستجاب لنا، فصارت الجمعيات السياسية «ورقة محترقة». ودليل ذلك انتخابات 2014 التي أنتجت تمثيلاً بسيطاً للجمعيات السياسية، وانعكس ذلك على انتخابات 2018».

يتبع

يتبع

خاتمة

يبقى العدد الأكبر من الإشكاليات الخليجية في مسألة المواطنة متشابهاً إلى حدّ كبير، وواحدة من أهمها منح المواطنة المتزوجة من غير مواطن جنسيتها لأبنائها، فالوضع الكويتي البحريني للمرأة هو نفسه الخليجي، وإن ظهرت بعض «المكارم» من قبل السلطات العليا في بعض دول المنطقة بمنح أبناء المواطنات غير المتزوجات من مواطنين الجنسية لأبنائهن، فإن ذلك لا يتم عن طريق قانوني يقرّ الحقوق، وإنما عن طريق المنحة.

ولاتزال مفاهيم المواطنة حكراً على الجمعيات والتيارات السياسية، وبالأخص المدنيّة منها، وخصوصاً وأنها تنادي بالدولة المدنية، أي الدولة العلمانية التي لا يكون الدين فيها أساساً للمواطنة، بل الأساس فيها تبادل الحقوق والواجبات بين السلطة والشعب، ولم تكن «المواطنة» – بمفهومها الشامل – جزءاً من وعي المواطنين وعاملاً أساسياً في تعريفه لعلاقته بالدولة والسلطة. ولذلك تجد القوى السياسية المدنية، ذات القواعد الضعيفة قياساً بالتيارات الدينية، أو من يسمّون بالـ «الغالبية الصامتة»، أن دربها لا يزال طويلاً للوصول إلى الحد الذي يجبر السلطات المحلية على التنازل عن بعض مميزاتها لصالح الأفراد، وليست السلطات في أي مكان في العالم مستعدة لتعطي عن يدٍ وهي صاغرة لتيارات لا تشكل خطراً على وجودها، وليست لها أصوات هادرة على المستوى الوطني.

وما إدارة الحوارات في مسألة المواطنة، وعمل الدول العربية عموماً على إنشاء مناهج لتدريسها بالشكل الذي يتواءم مع مفاهيمها، إلا لدلالة «أنّ وطننا العربي ما زال في أوّل السّلم على الصعيد العالمي إزاء المفهوم السليم للمواطنة وحقوقها، حيث تزداد الحاجة إلى إثارة حوار وجدل حول الفكرة وأبعادها وغاياتها وسياقاتها، وحشد قوى وطاقات حكومية وغير حكومية، سياسية وفكرية ودينية وثقافية واجتماعية، إضافة إلى مؤسسات المجتمع المدني، لمقاربة المفهوم الذي ارتبط بالدولة العصرية الحديثة، وبالتقدّم الذي حصل في هذا الميدان، ولاسيّما في الدول الغربية المتقدمة، حيث هناك تصالح بين الدولة والمواطن».

ففي أوروبا – من حيث أتى المصطلح – وضعت قواعد وباتت مجتمعاتها متمسكة بها لا تقبل الخروج عليها، فالمواطنون هناك تشرّبوها في مؤسساتهم التعليمية وممارساتهم اليومية، وعلاقاتهم مع السلطة والحرية، فلا يستطيعون التخلي عنها. حتى وإن كان بعض الأفراد لديه تصورات عنصرية (مثلاً) فهو لا يستطيع التصريح بها لأن في هذا هدم للبناء الاجتماعي، لذا فهو يجرّم عليها، وهذه خلاصات توصّل إليها الإنسان الغربي بعد الدمار والدماء التي خلفتها صراعات طويلة وسلسلة من الثورات والحروب الأهلية وخاتمتها الحرب العالمية الثانية، فتم وضع المواثيق الأساسية التي تصل إلى حدّ القداسة عند الإنسان الغربي في أوروبا والولايات المتحدة، ويصبح في معلومه أن نقضها يعني العودة إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، بكل ما في الكلمة من معنى، ومن هنا أنشأت المجتمعات الغربية منظومة من القيم فأصبحت القوانين تدور حول هذه القيم وأساسها المواطنة، في الوقت الذي استوردت فيه الدول العربية المصطلح وحاولت تبيئته من أجل الاندماج في «النادي العالمي». ولكن أكثر الدول العربية ومجتمعاتها لم تمرّ في التجربة الأوروبية ذاتها، في الوقت الذي سيطر فيه فكر «الراعي والرعية»، فجاءت القوى الاجتماعية ضعيفة التأثير في السلطات، في حين أن غالبية الثورات والانقلابات تولتها المؤسسات العسكرية التي أقامت أنظمة مشابهة لما انقلبت عليه، وكان من السهل في هذه الأوضاع التخلي عن المفاهيم والقيم التي اجتلبتها السلطات من الخارج لأن جذورها ما كانت بالعمق الكافي الذي يحول دون اقتلاع هذه المطالبات جزئياً أو كلياً.

وليس هذا الضعف مقتصراً على السلطات وحسب، بل على المستوى السياسي كذلك، ومن أبرز مظاهره في البحرين «الانشطارات الحقيقية في الجمعيات من بعد 2011، وهذا ما يعكس أن الترسبات الطائفية المذهبية لم تغادر يوماً، ولا تزال متشبّعة ومتشعّبة في نفوس المنتمين إلى هذه الجمعيات والذين دافعوا عن أفكارها لعقود، فبات من الواضح أن هذه الانتماءات الفرعية هي موجودة تحت القشرة الأيديولوجية».

«فالتعاطي كان ولا يزال براغماتياً بامتياز، أي أنه يخدم أغراضاً محددة، وتقتصر بمجملها على العملية الانتخابية، فإذا كان، موقف التيار السياسي ضعيفاً في دائرة انتخابية معينة بالقياس إلى التركيبة الإثنية للدائرة، فلن يتردد هذا التيار في العزف على مفهوم المواطنة لمعالجة قصوره الانتخابي، لكن إذا حدث العكس بحيث تصبّ أصوات الدائرة مع مرشح التيار، فلا بأس من استثمار النزعات العصبية الضّيقة لخدمة الطّموح السياسي الضّيق».

فالثنائيات المذهبية والمجتمعية في كل من البحرين والكويت، كما هو الحال في الدول الخليجية والعربية بشكل عام، تؤدي وظائفها المانعة والمعرقلة لقيم المواطنة، لأن هذه القيم تتناقض مع مصالحها، ويؤدي ذلك إلى أن يتخلى المجتمع عن حقوقه لصالح المؤسسة الرسمية لتسيّر أعماله، فـ«عندما يسقط المجتمع في كيانه السياسي والإداري والاجتماعي، لا شك أنّ وجود القانون والقواعد الأخلاقية يغدو هامشياً. وبقدر ما يكون القانون منسجماً مع ممارسات الناس، يغدو الأمن الاجتماعي والسياسي والمؤسّساتي مُكرَّساً. والعكس صحيح، إذ تتّصف المجتمعات المُهترئة بفقدان القوانين النافذة، وسريان الفئوية، وانتشار ثقافة الفساد والعنف بشكليه المادي والمعنوي، والاستغلال».

وعلى الرغم من التكوين السياسي المتباين ما بين الكويت والبحرين، إلا أن هناك تشابهاً جلياً في محددات تقدم «المواطنة» إلى المرتبة الداعية للاطمئنان، بل إن الخروقات في هذا الشأن، من وجهة نظر الجمعيات والتيارات المدنية، تبدو كبيرة، وتحتاج إصرار التيارات المدنية نفسها على الوصول إليها وبنائها مجتمعياً. خصوصاً في ظل التسابق المجتمعي لفتح مسارات أخرى تتناقض مع مفاهيم المواطنة كمحاولات الأسر «لتأصيل» امتداداتها بتشجيع رسمي أحياناً، إما بالسكوت أو بطلب الانتساب، وإضافة «بن» إلى ما بين الأسماء، أو «ال» التعريف أو اصطناع أسماء أسر غير متداولة وغير معروفة مجتمعياً، ويتجلى ذلك في الحالة البحرينية على وجه أوضح في السنوات العشرين الماضية، من أجل توفير الشعور بالانتماء الوجداني إلى المجتمع، واصطناع المفاخرة بالانتماء لعمق الجزيرة العربية، وهذا مطلب صار ملحاً لعدد من الأسر التي راحت تبحث في أصولها، أو تدّعي وصلها بقبائل عربية، لتعزيز مركزها في المجتمع.

تواجه التيارات المدنية في كل من البحرين والكويت تحديي انتشارها، وهما ما تلوم السلطات عليه بأنها عمدت إلى قصّ أجنحتها بتعزيز القوى الدينية وإعلاء شأن الولاءات الفرعية. والتحدي الثاني هو الممارسة الفعلية لبعض من أهم مفاهيم المواطنة داخل التيار نفسه، كتداول السلطة، حيث الملاحظ بطء التغيير في «تداول السلطة» في هذه الكيانات. ففي البحرين أسفر حراك السنوات العشرين الماضية عن تغيرات طفيفة جداً في قيادات الجمعيات، وفي الكويت هناك من يسمّون بالشخصيات التاريخية التي تم تجاوز بعضها أو ابتعاد بعضها طوعاً عن المشهد السياسي، الأمر الذي يفسره حسن العالي بقوله: «الديمقراطية الداخلية في عدد من الكيانات السياسية لها ما يمكن تسميته بالجانب الأبوي، باعتبار وجود القيادات التاريخية فيها، وهذا يأتي على حساب ممارسة الديمقراطية بالشكل الصحيح في هذه الجمعيات، واحترام دساتيرها الداخلية (...) لا أستطيع القول إننا نعكس الوضع السليم للديمقراطية، فالجيل الثاني من القيادات التاريخية لا يزال موجوداً في معظمه». وفي المقابل فإن السلطات في الدول الخليجية قد تدرك «أن إضعاف الدولة كمؤسسة، يعني إضعاف المواطنة كعلاقة»، وحينها يصبح من الصعب أن تجدي حملات العلاقات العامة الداخلية في الدول لأن تصلح التمزقات التي لم يجرِ تفاديها، فيجري التعويل على تعزيز المؤسسات العسكرية، لمواجهة الأخطار الخارجية والداخلية على السواء، وإغناء المواطنين – ما أمكن – عن السؤال عن حقوقهم، بحسب الفوائض النفطية لكلٍ منها.

•••••••••••••••••••••

* جزء من دراسة للباحث بعنوان: «المواطنة والقوى الوطنية في البحرين والكويت: تحديات مشروع الدولة الحديثة»، تضمّنها كتاب: (الثابت والمتحول ٢٠١٩ المواطنة في تيارات الخليج)، الصادر عن مركز الخليج لدراسات التنمية، ولأسباب فنية خاصة بمساحة النشر تمّ حذف الهوامش التي يمكن العودة إليها في الأصل.

صحافتنا الورقية مريضة لا تبحث عن شفاء

عصمت الموسوي

لا تستغرق قراءتي للصحيفة الورقية التي تصلني كل صباح سوى عدة دقائق، وبعدها تنتابني الحسرة حين أعقد المقارنات بين ما كانت عليه صحافتنا وما انتهت اليه، وأتساءل عن الظروف التي أوصلتنا إلى ذلك، وعن مدى رضا مقدمي هذه الخدمة ومستقبليها من قراء ومعلنين وغيرهم عن أداءها، هل هم مقتنعون بما يُقدم؟ وهل هو أفضل ما يمكن تقديمه؟ أليس بالإمكان زيادة جرعة المادة الصحفية الجادة وترغيب الناس فيها؟ وعلى ماذا تراهن الصحف حاليًا من أجل بقاءها؟ ولماذا اختفى عنصر المنافسة بين الصحف حتى أصبحت جميعًا نسخًا مكررة عن بعضها البعض؟

لكيلا تستغرقنا الأسئلة دعونا نشخّص وضع الصحف الورقية الحالية، التي أشبهها بإنسان مريض قانع بوضعه وخاضع لمرضه، لا يريد أن يشفى، وبالتالي لا يسعى لإطالة عمره، والدليل هو انتفاء أسباب التعافي والحيوية والتطوير والجودة تمامًا، وقد تنبأت أطروحة ماجستير للزميل الصحفي غسان الشهابي بأن أمام الصحافة من خمس إلى عشرين سنة قبل توقّف صدورها ورقيًا، وأعتقد ان النهاية ستكون أقصر من ذلك بكثير.

ولندخل إلى الأسباب التي أنتجت هذا الوضع.

أولاً: سيادة رؤية واحدة رسمية لمجريات الأحداث محليًا وخارجيًا وتعميمها وفرضها على الإعـلام، ومنع نقدها أو التطرق لما سواها أو مساءلتها أو النقاش حولها؛ ما أدى إلى انعدام الرأي الآخر تمامًا، وقد حدث ذلك منذ بدء أحداث ما سمي بالربيع العربي – والذي انعكست ارتداداته علينا – ولغاية اليوم. ولكن لم يسبق أن تمت محاسبة الصحفيين البحرينيين على حرية التعبير حول الأحداث الجارية إقليميا كما حدث لدينا مؤخراً، فقد أغلقت صحيفة «الوسط» بقرار إداري وليس قضائي؛ وتلك مخالفة كبيرة لقانون الصحافة نفسه بسبب تناولها لمظاهرات جرت في المغرب، وتمت مساءلة إبراهيم شريف لدى قسم مكافحة الجرائم الالكترونية على خلفية نقده للرئيس السوداني الذي أطاحت به الثورة لاحقًا، وجرى استدعاء الزميل عقيل سوار لقسم الجرائم الإلكترونية على اثر كتابته لعدد من التغريدات حول منع متابعة بعض الحسابات، وقد اعتبر عقيل ذلك تنصتًا على الناس، (ويقضي القانون بمحاسبة كل من يتابع أو يعيد التغريدة للحساب الذي لا يتوافق مع توجهات الدولة بالحبس خمس سنوات) .

ثانيًا: بقاء قانون الصحافة الصارم الذي صدر في عام 2002 ساريًا ومطبقًا إلى حين صدور قانون الإعلام الجديد ليس قبل عامين من الآن، وكلاهما لا يختلفان عما سبقهما من قوانين منظمة للعمل الإعلامي، وهي قوانين قاسية ومعيقة للحريات وخاضعة لقانوني العقوبات ومكافحة الإرهاب، وغير متلائمة مع الزمن الرقمي الذي خرجت فيه الكلمة من الفضاء الضيق المتحكم فيه إلى فضاء حر لا حدود له .

ثالثًا: أدى الركود الاقتصادي وتراجع الإعلانات إلى التقشف وضعف رواتب الصحفيين وتوقف المكافآت والزيادات، وبالتالي تراجع الإبداع الصحفي في كل مجالات الكتابة من خبر وتحقيق ومقال وتقرير، وحلّ الجمود وعدم الرغبة في التطوير لتلافي أية مصاريف إضافية، وصار تقنين المصاريف أهم هدف للصحيفة، فإذا مات الصحفي أو تقاعد أو تغيّب فلا أحد يحل محله، بل تعتبر الصحف مثل هذه الأمور ظرفًا مؤاتيًا لتنفيذ سياسة التقليص المتبعة، أما الجودة والإرتقاء بالعمل الصحفي وتطويره فلم يعدا مهمين.

رابعًا: غابت أو تضاءلت صفحة مهمة ومقروءة هي صفحة «بريد القراء والشكاوى» بعد تفعيل برنامج تواصل الإلكتروني، وهي صفحة يستشف منها القارئ أموراً مهمة، وقد تكون نواة لتحقيق او مقال رأي او غيره.

خامسًا: منافسة الإعلام الاجتماعي والصحافة الإلكترونية وصحافة الفيديو للصحافة التقليدية، فكل من يمتلك حسابًا أو منصة الكترونية للتعبير عن نفسه أو تجارته أو اراءه أو هواياته بأي وسيلة الكترونية يعد منافسًا للصحافة، ويطرح هذا الإعلام البديل كل يوم بل كل دقيقة خطابًا مغايراً لخطاب الصحافة السائد الخائف والمتماهي مع الموقف الرسمي، ويلقى تفاعلاً كبيرا من الناس، وهو أكثر سرعة وحيوية وتشويقًا من الإعلام التقليدي وقد استطاع ب»هاشتجاته» تكوين لوبيات رأي ضاغطة ومؤثرة وخارجة عن السرب، وفرض حضوره الكبير ووسّع شريحة متابعيه الذين يصل عددهم إلى الملايين قياسا بمتابعي الصحافة التقليدية.

انه الاعلام البديل الذي لم تستطع صحافتنا مجاراته ولا التعاطي معه بمنظور عصري، فمثلا إذا حصل ال «هاشتاق» على رقم كبير تحوّل إلى خبر ليس داخلياً فحسب بل ربما يصبح دولياً، وإذا كان هذا الإعلام مخالفا للتوجهات الرسمية فقد يواجه بالاستدعاءات الأمنية والمضايقات الإلكترونية بجيوش ما يسمى بالذباب الالكتروني الذي لا يعرف مصدره أو هويته، للتطفيش والتنغيص على الرأي المخالف وتسفيهه وتسقيطه أمام الجماهير ومعاقبته ومحاربته.

وجدير بالذكر أن منصات الإعلام الاجتماعي لا تصنف كصحافة وإن نافست الصحافة بقوة، فما لم يحدد صاحب المنصة أو الحساب هويته بأنه صحيفة خبر او موقع رأي، ويمتلك المهنية والتخصص والمتابعة ويلتزم بالشروط الصحفية فإنه لا يعد صحافة مكتملة، وقد صنف مقترح القانون الجديد بعض أنواع المنصات الإلكترونية ذات الطابع الخبري كصحافة الكترونية، وأفرد لها قسمًا خاصًا ووضع لها شروطًا تتضمن ضرورة امتلاك سجل رسمي ودفع رسوم، كما فرض قيوداً وعقوبات على المخالفين لها، وفي حالة الموافقة على هذا المقترح ستلقى الصحافة الإلكترونية نفسها أمام نفس التحديات الذي تواجهه الصحافة التقليدية.

وجدير بالذكر أن الصحافة الإلكترونية العاملة على مدار الساعة التي انشأها عدد من الصحفيين كهاني الفردان ومحمد الغسرة / ديلمون بوست، محمد العلوي /بحرين سكاي، «الخبر أون لاين» /عقيل ميرزا ومالك عبدالله، موقع «الجدحفصي»، «بحرين فيوز»، «الحياة أون لاين»، «رفاعي»، «محرقي» وغيرها، وبرغم خضوعها لنفس الظروف والقوانين، وتعمل ضمن السقف المتاح (وفي ظل فراغ تشريعي إذ لم يصدر القانون الذي ينظمها بعد) تشكل مصدر الدخل الوحيد لبعضهم، إلا أنها عملت بمهنية، ونطقت بما صمتت عنه الصحافة التقليدية واستقطبت المتابعين، وتلقى تفاعلاً كبيراً حتى مع الجانب الرسمي لحل المشكلات التي تطرحها.

سادسا: دور ملاك الصحف والقائمين عليها في زيادة تردي الصحافة، فلم نجد سعيًا لهذه الصحف لاستقطاب الكفاءات الصحفية الجديدة ولا تنمية الموجودين فيها ولا الدفاع عنهم في حال تعرضهم للمساءلات الأمنية على خلفية ممارسة حرية التعبير، ولم تنتقد هذه الصحف قوانين الصحافة المخالفة لحق ممارسة الحريات المكفولة دستوريا مع أن ذلك يقع في صلب عملها، ولا تسمح بنشر أي مادة متعلقة بهذا الموضوع، بل إن بعض الصحف استغلت احداث 2011 وفصلت كتّابها وصحافييها تعسفيًا وامتنعت عن دفع حقوقهم المادية، واختصمتهم في المحاكم على مبالغ مالية تافهة، وتستكتب الكتاب مجانًا أو بمبالغ هزيلة.

وهناك أسباب عديدة قد لا يسع المجال لذكرها، الأمر الذي جعل صحافتنا وفق المنظمات المعنية بحرية التعبير تتبوأ أدني المراتب، في تراجع عن المراتب الجيدة نسبياً التي حققتها الصحافة البحرينية خصوصا في الفترة 2006 – 2008، خاصة مع وجود صحف مستقلة ك»الوقت» و»الوسط».

هل انتهت الصحافة الورقية التقليدية وانعدم مسوّغ وجودها؟ ها نحن نشهد انحسار قراءها ومريديها وضعف التفاعل معها وتضاءل نسخها المطبوعة ونسبة أرباحها، وان استمرارها على النهج الحالي سيعجل بنهايتها حتما قبل الأوان ربما، وهو مصير لا نتمناه لمؤسساتنا الوطنية التي لعبت دورا في تطور المجتمع ونهضته، بيد أنني أرى منظومة إعلامية وصحافية قديمة تتداعى وتنهار تحت وطأة التغيير التكنولوجي والتحول الفكري الذي يلف العالم بينما تقف هي عاجزة عن مجاراته.

إن استيراد الأجهزة الذكية وفتح الأبواب لشركات الاتصال وتطوير بنية شبكات الإنترنت وتوسيعها وزيادة شريحة الموصولين بهذه الشبكة تستدعي أيضا تغييرا في البنية الذهنية والاتجاه الى إرساء القوانين الحرة والمواكبة للتحولات الراهنة والقادمة، حتى لا نكون في واد والعالم في واد آخر.

ورقة قدمت في ندوة بمركز شباب جدحفص في أغسطس الماضي

الثورة الصناعية ودور المؤسسات في التنمية الاقتصادية

طرح الباحثون في التاريخ الاقتصادي سؤالًا وهو لماذا بدأت التنمية والتقدم في أوروبا بدلًا من مناطق اخرى كانت مؤهلة مثل الصين والعالم الاسلامي؟ ولماذا بريطانيا بالذات وليس إسبانيا والبرتغال اللتان سبقتا في التجارة الدولية وبناء المستعمرات، أو اليونان وإيطاليا اللتان بدأت فيهما الحضارة الغربية؟

في محاولتهم للإجابة توصلوا إلى عوامل تساهم في خلق البيئة المناسبة للتنمية والتقدم. من هذه العوامل نذكر جودة علاقة المجتمع بعضه ببعض. وعلى مستوى الرأسمال البشري الذي يعتمد إلى حد كبير على التعليم والمهارات، وعلى رأس المال الاجتماعيً الذي يعزز الثقة في المجتمع ويتيح التعامل بين مكوناته ومؤسساته، وعلى قدرات الناس ومستوى استعدادهم للمخاطرة واتخاذا القرارات السريعة، بالإضافة إلى نوعية المحفزات والخيارات المطروحة للناس في تعاملهم. كذلك هناك عوامل قد لا يكون الإنسان عنصراً فيها مثل المناخ والجغرافيا. لم تحسم الإجابة على هذا السؤال والتجربة البريطانية توضح عدداً من العوامل المؤثرة.

في منتصف القرن التاسع عشر بلغت بريطانيا اوج قوتها الاقتصادية وتمكنت من تحقيق نمو اقتصادي مستمر هيمنت به على العالم. تجسّدت هذه الهيمنة في معرض قصر البلور (Crystal Palace Exhibition) الذي أقيم عام 1851 وكان تتويجًا لعصر التنوير وانتصار الإنسان على الطبيعة وتحقيق التقدم الاجتماعي والأخلاقي.

مثلَّ المعرض احتفالًا بأهمية المعرفة المفيدة، كما مثلّ رمزاً للسلم العالمي، ولتحول التسابق على الإنتاج المفيد بدلاً من الإنتاج المدمر. بالنسبة للاقتصاديين المعاصرين فإن المناسبة كانت احتفاءً بأن المعرفة المفيدة تكمن في قيم التنمية الاقتصادية المستدامة، وأن جزءا كبيراً من الفضل يعود إلى فرانسيس بيكن (الفيلسوف الإنجليزي الذي وضع أسس البحث العلمي التجريبي) ورؤيته في التنوير والبحث العلمي التي تتلخص في النفعية والتقدم، وأن الغاية من المعرفة هي زيادة سعادة الإنسان وتقليل تعاسته.

عكست قيادة بريطانيا للثورة الصناعية تفوّق مؤسساتها الرسمية وغير الرسمية ونظامها الاجتماعي المنفتح التي مهّد لها ميثاق المجنا كارتا (magna carta) في 1215. من أهم المؤسسات غير الرسمية هو تحصيل المعرفة وبناء رأس المال البشري عن طريق المبادرة الفردية والاتصال المباشر بين الطالب بمعلمه والتعلّم الذاتي، والاعتماد على الثقة والتبادل غير الرسمي للمعلومات. مع التقدم لم تعد هذه الطريقة كافية. في إحدى المحاضرات يقول السيد ليون بليفير (أحد كبار المنظمين للمعرض) بأن هناك تحولًا سريعًا في مجال التصنيع، وبالتالي فإن مستقبله لا يكمن في التنافس على الميزة التنافسية المحلية، بل يكمن في القدرات الفكرية. ويواصل بأن جميع الدول الأوروبية بدأت في ادراك ذلك ماعدا بريطانيا، ويرى أن بريطانيا تحتاج إلى إعادة انتاج

د. محمد الكويتي

الاقتصاد المستنير ليس هو الحرية الاقتصادية الليبرالية وإنما هو الذي يقرّ باخفاقات السوق

نفسها. الجواب بالنسبة لبليفير هو أن الدول الأخرى اعتبرت العلم مبدءاً قومياً للدولة ولديهم مدارس في كل مدينة تُعلم مبادئ التصنيع، والدول الأوروبية رفعت نفسها على أكتاف العلم بينما نحن (بريطانيا) نجرجر نفسنا في أذياله". أي أنه يرى أن قيادة بريطانيا لن تدوم، وأنها اعتمدت على معتقدات عصر التنوير، وسوف يلحق بها الآخرون الذين اعتنقوا هذه المعتقدات.

لمعالجة الوضع نادى باصلاح نظام التعليم ليكون موجهًا نحو دراسة العلم والتكنولوجيا (العمل الجيد) الذي يرفع من رصيد موارد الدولة المعرفية والبشرية. ويواصل بأن العلم والتكنولوجيا لم يحظِيا بالاحترام الكافي في بريطانيا. ففي الوقت الذي يتجه أبنَاء الدول الأوروبية إلى العلوم والتكنولوجيا مازال المجتمع البريطاني يُمجد اللوردات ملاك الأراضي، وأن أبناء الصناع والتجار والحرفيين والمهندسين، الذين خلقوا الثورة الصناعية، أصبحوا يفضلون دراسة القانون والاجتماع والإلتحاق بمجتمع اللوردات الذي يحظى باحترام مجتمعي كبير. واضاف بأن اصلاح المناهج التكنولوجية أمر اساسي إذا كانت بريطانيا سوف تتقدم وتنافس بل وتبقى في مصاف الدول الصناعية.

اكتشفت بريطانيا محدودية الإيديولوجيا الليبرالية مثل حرية التجارة وسهولة الدخول والتنقل والاعتماد على السوق التنافسية، واصدم ذلك بإخفاقات السوق وتناقضاتها وعدم المساواة والحالة العمالية المزرية والمجاعة التي كانت نتاج عدم المساواة والفقر والبطالة وتدني الأجور. أقنع ذلك أصحاب فكر الاقتصاد السياسي الليبرالي بضرورة تدخل الدولة، ورسم الحدود بين الدولة والسوق، واعتبروا التدخل عقلانية اقتصادية بالإضافة إلى كونه واجباً أخلاقيًا. وأصرّوا على أن سياسة رفع يد الدولة ليست خياراً، وأن الاصلاح مسؤولية الدولة. الاقتصاد المستنير، إذاً، هو ليس الحرية الاقتصادية الليبرالية وإنما هو الذي يعترف ويقر باخفاقات السوق وحدوده، والتعامل معه بواقعية ونفعية.

كيف تعاملت بريطانيا مع ذلك في المدى البعيد؟ هناك طريقان، الأول من خلال مؤسسات رسمية والثاني عن طريق مؤسسات غير رسمية مثل الثقافة والتقاليد والعادات. على المستوى الرسمي فإن المؤسسات التي أثبتت صلاحيتها ومرونتها في التعامل مع أحداث القرن ونصف القرن قبل 1850 استطاعت الصمود بسبب خفتها ورشاقتها في التكيّف مع المتغيرات، وأهمها البرلمان والملكية، مستفيدة من القدرة الذاتية في التأقلم والتكيف التي بنتها على مدى القرون.

كذلك احتاجت بريطانيا بعد 1850 إلى بدء التعليم المجاني وسنّ تشريعات لتحسين مستوى المعيشة والاهتمام الصحي وحتى اصلاح نظام براءة الاختراع. والأهم إقامة هياكل تدريبية تُخَرِّج نوعًا جديدًا من رأس المال البشري يستطيع التعامل مع التقارب بين التكنولوجيا والرياضيات والعلوم. فقد كانت القدرات العلمية القادرة على المزج بين الرياضيات والإدراك العلمي والقدرة الابتكارية، محدودة.

القدرة على الاصلاحات كانت إحدى نتائج وفوائد مجلس نواب كمؤسسة قوَّامة ومهيمنة على باقي المؤسسات وهي المؤسسة السائدة في المجتمع وقوانينها نافذة وتعمل في استقلال تام عن المَلكية تحقق لها بعد صراع مرير. لكن المشكلة كانت في المؤسسات غير الرسمية (الثقافة والعادات والتقاليد والإيديولوجيا) التي واجهت صعوبة في التغيير والتأقلم، مثل العلاقات السائدة في المجتمع، وثقافة المجتمع التي تنظر إلى الطبقة الأرستقراطية على أنها قدوة، فاتجهت إلى امتلاك الأراضي تأسيا بالطبقة المخملية، فأضعفت تأقلم المؤسسات الاقتصادية وفقدت قيادتها وتمكنت أمريكا وفرنسا والمانيا واليابان، وتحت ظروف مؤسسية أكثر مرونة وتقدمًا، الالتحاق بالنادي الصناعي وتخطيّها.

يتضح من التجربة البريطانية أن النمو الاقتصادي هو اولًا نتاج تغيير وتطور تكنولوجي – اختراع يستبدل ما سبقه ويقضي عليه – أو مايسمى «الهدم الخلاق (Creative Destruction)، واستمرار استبدال تقنيات بأخرى وأدوات بأخرى أحدث منها. ثانيًا؛ إن فكرة التكيّف تمتد إلى المؤسسات، حيث تستبدل مؤسسات غير صالحة بأخرى أكثر قدرة على التعامل مع المتغيرات. فالنمو الاقتصادي

يحتاج إلى تكيّف القدرات الاجتماعية والسياسية مع المتغيرات المحيطة. وبالتالي فإن خفة ورشاقة هذه المؤسسات في التكيّف هو أمر في غاية الأهمية للنمو الاقتصادي، وجمودها يقتل الابتكار ويخنق النمو. ثالثًا؛ هذه القدرة على التكيّف مطلوبة أيضًا للمؤسسات غير الرسمية. وحيث أنه لا توجد مؤسسات مناسبة لكل الظروف الاقتصادية فكذلك لا توجد إيديولوجية أو تقاليد صالحة لجميع الظروف. وفرّت مرحلة التنوير مؤسسات استطاعت أن تحرر الاقتصاد من سطوة الإيديولوجية التجارية والريعية وسياساتها وأنظمتها وقيودها الاجتماعية، التي اهتمت باعادة توزيع الثروة على المتنفذين سياسيًا ومصالح الحكم. لم يكن هذا النظام صالحًا لعالم يحكمه التقدم التكنولوجي والسوق الحرة وريادة الأعمال المبتكرة وتعاون عالمي في التقدم التكنولوجي. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر بات من الضروري مراجعة بعض أفكار التنوير، وما بقي من هذه الأفكار هو أن المعرفة المفيدة هي الوسيلة والسبيل نحو التغيير بالرغم من المخاطر الاجتماعية.

صحيح أن التنوير لم يكن السبب المباشر لقيام الثورة الصناعية ولكنه كان العامل الحاسم في تحوّلها إلى نمو اقتصادي مستمر. بدون هذا التنوير سيكون من الصعب تصوّر نجاح موجة من الابتكارات التكنولوجية التي بدأت بعد 1760 لتتحول إلى نمو اقتصادي حديث يزداد غنى سنة بعد أخرى. بدون هذا التنوير كان يمكن لهذا التقدم أن يقف كما حدث في فترات تاريخية سابقة في الصين والعالم الإسلامي. ثمار التنوير نضجت في بريطانيا قبل غيرها، وبالتالي فإن التنوير هو الذي وضع أوروبا على سكة الحداثة الاقتصادية. وبريطانيا كانت رأس الحربة في ذلك. اختلف هذا العصر عن عصر الريعية والتجاروية في طريقة تراكم ونشر وتوظيف المعرفة المفيدة وفي كيفية عمل مؤسساته الاقتصادية لخلق الثروة وليس فقط توزيعها.

الخلاصة أن هناك اربعة عوامل تضافرت لإحداث التغيير واستمراره، لم تكن الوحيدة لكنها كانت مؤثرة وحاسمة. أولًا ؛كان عامل التعليم والتدريب التكنولوجي القائم على مفهوم المعرفة المفيدة المستندة على الدليل العلمي والبحث والتطوير القائم على فكر فرانسيس بيكن في مفهوم المعرفة المفيدة والتجربة. ثانيًا، فكر التنوير الذي حرّر الإنسان من سطوة الكنيسة وقهر السلطة، وجعله محور التنمية وغايتها وكرّس قيم العدالة والمساواة والمساءلة ومبادئ الديمقراطية الأخرى والمشاركة السياسية والاقتصادية وأسسّ لفكرة الدولة الراعية، كما كرّس أخلاق الجد والاجتهاد والعمل الصالح والثواب والعقاب. ثالثًا، أوضحت التجربة أن التمسك بمؤسسات أو إيديولوجيا معينة بعد أن تبيّن عدم قدرتها على التعامل مع اخفاقات السوق أو عدم ملاءمتها مع قيم المجتمع مضرّة ويجب تجديدها أو تغييرها. إن الإخفاقات، أياً كانت، تختلف من بيئة إلى أخرى وبالتالي فمن الضروري التعامل بواقعية معززة بتحليل عقلاني للوضع السياسي والاقتصادي واتخاذ الحلول وتجربتها وتعديلها متى ما تبيّن حاجتها للتغيير. ورابعًا؛ إن للدولة دور مهم في سن التشريعات المناسبة لمعالجة اخفاقات المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وقبول استبدالها بمؤسسات تثبت التجربة نجاعتها.

نستخلص من ذلك إننا كأمة عربية علينا أن ندرك أننا نعيش في عالم مختلف عن العالم الذي كان عليه عندما بدأت الدول العربية تتشكل في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. لم تعد المؤسسات ولا العادات والتقاليد ولا العلاقة بين الحاكم والمحكوم التي كانت ملائمة في ذلك الوقت صالحة لعالم اليوم. ما نراه من صراعات تعمّ الوطن العربي (وما نطلق عليه مؤامرات) ماهي إلا نتاج هذا التناقض بين متطلبات العصر وبين النظم والمؤسسات والتقاليد والعادات التي نرفض التخلي عنها.

لن تنتهي الصراعات التي نعيشها إلا بعد أن ندرك أهمية التغيير والتوفيق بين العصر الذي نعيش ومستواه المعرفي والاجتماعي والمؤسسي الذي وصل إليه العالم وبين مؤسساتنا وعاداتنا وتقاليدنا التي لم تعد صالحة لهذا العصر. التشبث بهذه المؤسسات والأعراف يقودنا نحو صراعات فيما بيننا وبين جيراننا، كما يقود إلى تبني نظرية المؤامرة لإراحة أنفسنا وتحويل المشكلة من داخلية إلى خارجية. هذا ينذر بالحاجة الملحة للتغيير. التغيير الذي نقوده بأنفسنا، حكامًا وشعوبًا، سيكون أكثر أمنًا وسلامةً لأوطاننا من التغيير الذي يحدث خارج إرادتنا. لذلك علينا إدراك هذا الواقع الجديد وما يتطلبه من تغيير والعمل على قيادته والتدرج فيه قبل فوات الأوان.

النضال من أجل الحقوق مستمر

جواد المرخي

لا يمكن نسيان أو تجاهل ما قامت به جماهير وقيادات الحركة العمالية وسائر الشغيلة من نضال عسير وتضحيات جسام حتى تحقق للحركة العمالية والنقابية ما تحقق من مكاسب وحقوق وانجازات فكرية وسياسية ومعيشية وعمالية على مستوى العالم.

من أجل نيل هذه المكاسب ناضل العمال وقدّموا خيرة مناضليهم على حبل المشانق وغيبتهم غياهب السجون، فضلاً عما نالهم من عن تهجير وعوز ومعاناة الفقر والظلم والاضطهاد.

كما قدمت تضحيات مماثلة في طريق النضال الوطني ضد الاستعمار وأعوانه من أجل الحرية والتحر، حيث أن هذا الاستعمار هو مرحلة من مراحل التطور الرأسمالي العالمي، من أهدافه توحيد الأسواق العالمية من أجل التصدير واحتكار الثروات وتوسيع التجارة الخارجية للدول الرأسمالية على حساب اضطهاد شعوب المستعمرات.

ولقد ساهم اليسار العالمي الماركسي في توحيد مسار الحركة العمالية ضد أهداف الاستعمار مما ساهم في توحيد كل الشغيلة باليد والفكر في درب النضال الوطني، ولعبت حركات التحرر الوطني أدواراً مشهودة في استقطاب جماهير العمال، بما في ذلك في بلداننا العربية، ولنا في تأسيس جبهة التحرير الوطني البحرانية مثالاً حياً، حيث لعب العمال أدواراً رئيسية في النضال المطلبي والسياسي.

تتصدى الطبقة العاملة العالمية اليوم لسياسات النظام الرأسمالي العالمي في مسألة الارتفاع الحاد في نسبة البطالة وغلاء المعيشة والفقر ومحاولات عرقلة نضال العمال عبر التلاعب بمستوى الوعي العمالي الذي أكتسب عبر عقود من الزمن منذ صدور البيان الشيوعي عام 1848 وقيام الثورة الاشتراكية العظمى عام 1917 في روسيا وأيضاً الإنجازات التي تحققت بعد قيام المنظومة الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية والانتصارات التي حققتها روسيا ضد النظام الفاشي الهتلري.

هذا وبالرغم من انهيار تلك المنظومة الاشتراكية بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلا ان الطبقة العاملة في العالم تخوض نضالاً مستمراً لا يمكن ان يتوقف ما دام الصراع الطبقي والصراع الاجتماعي والصراع السياسي مستمراً، رغم اختلاف الظروف من قارة إلى أخرى ومن قطر إلى قطر آخر كما يتفاوت مستوى وحجم الفقر والبطالة، لكن السياسات الرأسمالية وحلفائها في الدوائر الصهيونية والرجعية لا تستهدف فقط حقوق الشغيلة، وإنما تهدد، أيضاً، الحياة البشرية جراء تدمير البيئة والعودة عن الكثير من منجزات الحضارة البشرية.

(قف)

الأطفال ضحايا الحروب

تجعل النزعات العسكرية المدنيين في حالة من الاستضعاف لكنها تشكل ضغطاً متزايداً وخطراً مضاعفاً على الأطفال نظراً لصغر أعمارهم وضعف بنيتهم الجسدية، ومن بين أبرز المخاطر التي تواجه الأطفال في الحروب الموت والتيتم والإصابة بالجروح والنزوح والانفصال عن الأسر، كل هذا علاوة على صعوبة الحصول على الرعاية الصحية، ما قد يؤد إلى الموت أو ربما يترك اثاراً طويلة المدى.

فهد المضحكي

يمثل الأطفال نسبة غير مقبولة من الضحايا المدنيين خلال الحرب، ووفقاً لمنظمة «أنقذوا الاطفال» ارتفع عدد الأطفال الذين أصيبوا أو قتلوا في النزعات بنسبة 300٪ على مدى العقد الماضي، ويدفع الأطفال ثمناً باهظاً جداً خلال الحرب ويتعرضون للسجن والتشويه والقتل.

ويؤدي النزاع المسلح إلى تمزيق الأسر، واجبار الآلاف من الأطفال على اعالة أنفسهم ورعاية معالين أخرين، ويتخذ استغلال الأطفال الذي غالباً ما ترتفع نسبته اثناء الحرب، اشكالاً متعددة مثل العمل القسري أو العبودي في الحالات القصوى.

ويتعرض الفتيان والفتيات الذين حرموا من حماية والديهم وأقاربهم للخطر، وقد يكون هذا أيضاً مصير الأطفال الذين جنّدتهم القوات المسلحة أو المجموعات المسلحة والأطفال المحتجزين، ولا يتأثر الأطفال بالعواقب المباشرة للنزاع فقط بل كذلك بالعواقب غير المباشرة مثل انقطاعات امدادات السلع والخدمات الأساسية وتعذر الوصول إليها، وقد يكون هذا الوضع كافياً خصوصاً للأطفال دون سن الخامسة.

ولحسن الحظ، نادراً ما يفقد الأطفال احساسهم بالأمل ولا ينبغي الاستهانة بقدرتهم على الصمود، ويمكن أن تساعد الرعاية الموجهة بشكل جيد الأطفال على التعافي وإعادة الادماج في بيئة يمكنهم فيها استعادة صحتهم واحترامهم لذاتهم وكرامتهم، ويعدّ احترام مُثل القانون القائمة امراً اساسياً لمنع حدوث انتهاكات وإلحاق المزيد من الأذى بالأطفال.

وتذكر مجلة "الإنساني" التي تصدرها اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن المباني المدنية مثل المدارس والمستشفيات محمية بموجب القانون الدولي ومع ذلك تزداد تعرضها لإطلاق النيران.

وأفادت منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونسيف) في عام 2019، أن احتمال تعرض الأطفال الذين يعيشون في بلدان تشهد نزاعات يطول أمدها للوفاة بسبب الأمراض التي تنقلها المياه يفوق لخمسة اضعاف وفاتهم من جراء الأضرار المباشرة الناجمة عن الرصاص والقنابل ويمكن أن يدّمر القتال او يعطل الخدمات الأساسية التي يعتمد عليها الناس في المدن للبقاء على قيد الحياة.

قد تؤدي الحرب إلى إصابة العديد من الأطفال بالإعاقة أو في حالة الأطفال ذوي الإعاقة عدم قدرتهم على الحصول على الرعاية التي يحتاجون اليها، وغالباً ما تشدّني إمكانية الوصول إلى الخدمات الصحية والأدوية إما لعدم قدرة الأسر الفقيرة على تحمل تكاليف الرعاية الصحية أو بسبب فرار الأطباء والممرضات من العنف والفوضى، أو بسبب انهيار الرعاية الصحية بأكملها أحياناً.

في البلدان المتأثرة بالنزاعات يتعذر على الكثير من الأطفال ارتياد المدارس، ويعود هذا لعدة أسباب منها: تضرّر المدارس أو استخدام القوات العسكرية لها، وتعرّض المدرسين للتهديد أو الاستهداف أو فرارهم بسبب انعدام الأمن وتعذّر الوصول إلى المدارس نظراً لخطورة الطرق والجو العام غير الآمن، ونقص الدعم الحكومي للمدارس وهو ما يعني أن المرافق والخدمات لم تعد مناسبة.

وعلاوة على ذلك يحرم الأطفال الذين جُنّدوا في القوات المسلحة عادة من التعليم وفيما قد لا يتاح للأطفال النازحين الذين يعيشون في المخيمات نتوء في الأرض وشريط يتدلى من شجرة زيتون أو ملقى في حقل ارز، وما أكثر ما لا ترى العين الألغام الأرضية وغيرها من مخلفات الحرب القابلة للانفجار وهي لا توحي بما فيها من خطورة لكنها أجهزة قاتلة وتستخدم هذه الأسلحة في جميع النزعات الحالية وهي تخلف إرثاً قاتلاً طول الأمد غالباً ما يظلّ في موقعه لعقود بعد انتهاء النزاع.

ولا تميز مخلفات الحرب القابلة للانفجار بين ضحاياها سواء كانوا بالغين أو اطفالاً، اناثاً او ذكوراً، وقد يتعرض كل من الفتيات والفتيان للخطر عند مساعدة البالغين في أنشطة كسب العيش أو بسبب فضولهم الطبيعي، أو ضغط الأقران أو ببساطة لوجودهم في المكان الخطأ في الزمن الخطأ.

قد يشارك الأطفال في الأعمال العدائية اثناء النزاعات المسلحة – ويمكن استخدام الأطفال في مجموعات من الأدوار: جنود وطهاة وسعاة وجواسيس وكاشفو ألغام ورقيق جنسي وعمال قسريون وحتى قنابل بشرية.

وقد يُجنّد الأطفال قسراً أو عن طريق الخطف ولكن العديد منهم ينضمون "طوعاً" إلى الجهات المسلحة، ومن بين الأسباب التي تجبر الأطفال على الالتحاق بالجهات المسلحة: الفوارق الاجتماعية الحادة والإنفصال عن البالغين الذين يرعونهم، وتعذّر الإستفادة من التعليم، والنزوح، وقد يؤخذ الأطفال ايضاً بالسلطة والمكانة اللتين يعتبرون حاملي الأسلحة يتمتعون بهما، ويمكن ان يكون الانتقام لوفاة أحد الأقارب دافعاً للإنضمام أيضاً.

ومع ذلك يجب ألا نغفل أنهم اولاً وقبل كل شيء ضحايا، رغم احتمال كونهم جناة، وتمثل مسألة تسريح الأطفال وإعادة إدماجهم في المجتمع ضرورة لإعادة بناء المجتمعات التي مزّقها العنف، وتتمثل أولى الأولويات في لمّ شملهم مع أسرهم ومجتمعاتهم الأصلية مع مراعاة احتمال مواجهتهم لصعوبات نفسية عند إعادة الإدماج في المجتمع، وينبغي إعادة ادخالهم في النظام التعليمي، ومساعدتهم للعثور على عمل من خلال التدريب المهني أو المشاريع المدرة للدخل. وهذا أمر جدً مهم لمنع تهميشهم وتعريضهم لخطر التجنيد مرة أخرى.

أصدرت منظمة "أنقذوا الأطفال" الأهلية الدولية تقريراً جديداً يوثق التأثيرات الجسمانية والنفسية المدمرة على الأطفال نتيجة للحروب، ويطالب المجتمع الدولي بأن يلتزم سياسياً أو يوفر الموارد اللازمة من أجل حمايتهم.

وقالت الرئيسة التنفيذية للمنظمة هيلي ثورنينغ شميث، أن "القانون الدولي يبين تماماً أن كل شخص يتحمل مسؤولية من أجل حماية الأطفال في الحرب، ومع ذلك تواصل أسلحة متفجرة قتل وتشويه وترهيب الآلاف من الأطفال كل سنة..... وبتعين على كل طرف محارب من المجموعات المسلحة وحتى الحكومات أن يفعل المزيد من أجل حماية الأطفال والالتزام بالمبدأ الأخلاقي المهم المتمثل بحماية الأطفال.

وحسب التقرير الجديد، فإن 72٪ من وفيات وإصابات الأطفال في مناطق النزاعات الدموية تحدث بسبب الألغام الأرضية والذخائر غير المتفجرة والغارات الجزية وأسلحة متفجرة أخرى.

بصراحة

الخليج في اليوم العالمي للسلام

فاضل الحليبي

السلام والاستقرار في أي بلد كان يعني التنمية والازدهار، وبالأخص في البلدان التي تمتلك ثروات طبيعية متعددة، ففي منطقتنا تملك بلداننا، بصورة رئيسية، ثروة واحدة هي النفط، ولكن قبل ذلك وبعده يوجد الإنسان وهو الثروة الحقيقية. تقع مطقتنا في موقع استراتيجي بين القارات، ومنذ غابر الأزمان كانت نقطة التقاء وتواصل بين البلدان والشعوب، لهذا كانت هدفاً لأطماع الإمبراطوريات والغزاة، وليس بالغريب على الإمبريالية العالمية اليوم وبالأخص الإمبريالية الأمريكية بأن يكون لها تواجد في المنطقة وهي بالتأكيد لا تريد بأن تطبق على الشعوب والبلدان في المنطقة (ديمقراطيتها) مثلما توّهم البعض من المثقفين والكتاب المتأمركين أثناء الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 بعد الإطاحة بصدام حسين ونظامه، فالعراق لا يزال غارقاً في فساده وسرقة المال العام والطائفية تعشعش في أفئدة السياسيين والشعب يتجرع الألم والجوع والفقر ويعاني من الأرهاب و الحرب في واحدة من أغنى البلدان العربية.

للإمبريالية الأمريكية هدف واضح هو الهيمنة على ثروات وخيرات دول المنطقة والمحافظة على مصالحها، ولا يهمها إنْ طُبّقت الديمقراطية أو انتهكت حقوق الإنسان، لهذا هي غير معينة بالسلام في منطقتنا، هي معينة بجني الأرباح من خلال ابرام صفقات التسلح وبيع الأسلحة لدول المنطقة.

بالمقابل هناك بلدان تطرح مبادرات من أجل السلام في المنطقة مثل روسيا الاتحادية طرحت في شهر يوليو/ تموز الماضي مبادرة من أجل السلام والأمن، تتكون من خمسة بنود تهدف إلى (تقليص الوجود العسكري الأجنبي في المنطقة، واحترام سيادة بلدان المنطقة، والالتزام بالاتفاقيات الدولية لتجنب نشوء صدام وحرب فيها في حالة استمرار الحشود العسكرية لأكثر من دولة في الخليج).

من أجل إبعاد خليجنا عن الصراع والحرب وتكريس الجهود من أجل السلام والتعايش بين البلدان والشعوب في المنطقة بالتأكيد على أهمية السلام وأن يكون هو الهدف السامي للجميع في الاقليم. لهذا نجد العديد من البلدان والشعوب في العالم تحتفل سنوياً باليوم العالمي للسلام منذ 21 سبتمبر 2001، برفض الحرب والعنف والتأكيد على تعزيز المُثل العليا للسلام بين الشعوب والبلدان، وفي هذا العام تحتفل الأمم المتحدة بهذا اليوم تحت شعار (العمل المناخي من أجل السلام)، بما يسلط الضوء على أهمية مكافحة تغير المناخ بوصفه وسيلة لحماية السلام وتعزيزه في جميع أنحاء العالم.

إن تغيّر المناخ له تأثير كبير على السلم والأمن الدوليين فكيف الحال لو نشبت الحرب التي ستدمر وتخرب وتقتل الأبرياء من المدنيين وبالآلاف وربما بالملايين مثلما حدث في الحرب العالمية الثانية، فالحرب لا تعني سوى الابادة للإنسان، لهذا مرفوضة أخلاقيا ومن جميع الأديان والشرائع والمعتقدات.

فهل تتحول منطقة الخليج إلى بحيرة سلام تُبعد عنها الأحلاف والأساطيل والبوارج الحربية، ليعمّ السلام والتعايش في خليجنا؟!

ما فعله الأمريكان في العراق

قاسم الحلال

السياسة الرعناء الفاشلة التي يتبعها اليوم فريق في الإدارة الأمريكية، جعلت حتى بعض حلفا أمريكا ينتقدونها، فالتصعيد بدأ في المنطقة منذ قيام القوات الأمريكية باحتلال العراق، وضرب كل مؤسساته الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، حيث دمرت بنيته التحتية، منذ أن وضع تحت الحصار بحجة التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل، التي اكتشف العالم فيما بعد أنها اكذوبة كبرى.

دخل الاحتلال الأمريكي العراق وعاث فيه فساداً، وحتى لا تنكشف جرائمه تماماً قام بالتضييق على مكاتب وكالات الأنباء العالمية مثل اشيوسيتد برس، وفرانس برس في فندق فلسطين، وذلك بعد أن رأى العالم على شاشات التلفاز فضائح سرقة الأسلحة الذهبية والفضية لصدام وأبناءه، وسرقة صناديق الدولارات التي أعدها ابنا صدام للهرب بها للخارج.

كما أجهز الأمريكان على المتحف وسرقوا محتوياته، وقاموا بفتح السجون وإطلاق سراح عتاة الجريمة والقتل، وأصحاب الأحكام المؤبدة، حتى أنهم استخدموا بعضهم في تأدية مهام قذرة مقابل الإعفاء عنهم.

وانسحبت وكالات الأنباء والصحفيون والمصورون محملين القوات الأمريكية هذه الجريمة، وبعد رحيل الصحافة استمرت القوات الأمريكية والبريطانية بارتكاب الكثير من الجرائم التي لم تنل أي اهتمام أو محاسبة من الحكومات المتعاقبة التي شكلّهاحزب الدعوة الذي جاء مع القوات الأمريكية على ظهر دبابة، حيث تمّ القبض على 4 من البريطانيين المتخفين ينوون زرع متفجرات، وبعد أن أودعوا سجن أحد المخافر جاءت قوة بريطانية لتأخذهم بالقوة، ثم جريمة قتل جرحى مدنيين لجأوا إلى أحد المساجد حيث لاحقهم الجنود الأمريكان إلى داخل المسجد وقتلوهم على مرأى ومسمع من العالم.

والجريمة الأكبر هي إفراغ العراق من كوادره من أطباء ومهندسين وفنيين، إما باغرائهم بالمغادرة إلى أمريكا للاستفادة من خبراتهم، أو باضطرار آخرين للرحيل لينجوا بأنفسهم، فيما قامت القوات الأمريكية بتصفية بعضهم، فرغم تظاهر قوات الأمريكان بدقة الحماية والتفتيش، اكتشف العراقيون بعد التساؤل عن استهداف الأمكنة الأكثر تجمعاً كالأسواق والحسينيات والجوامع أن الأمريكان ليسوا بعيدين أو أبرياء من عمليات التفجير التي راح ضحيتها أعداد لا تحصى من المدنيين.

سؤال الحياة

جنان العود

(الحياة حلوة بس نفهمها) – مطلع أغنية الراحل فريد الأطرش. (الدنيا ريشة في هوا، ياللي بتسال عن الحياة.. خُدها كده زي ما فيها، فيها ابتسامة وفيها آه.. فيها اسية وحنية) – أغنية أخرى للراحل سعد عبد الوهاب.
(هوّنها وتهون)، (اضحك تضحك لك الدنيا)، حِكم بسيطة لا شك، تقترحها الأغاني والأمثال الشعبية، ويتداولها الناس بشكل شبه يومي للصمود أمام يوم جديد تَقدمه لنا الحياة. كلمات بين البداهة وبين الابتذال تطرح إمكانية التعايش السهل، التقبل، الرضى بما هو متاح: استمتع، خذ الحياة ببساطة، كن حرّا، ارقص، طِرْ، آمن بقدرك. تلك هي وظيفة الأغنية على الأغلب، مورفين مهدئ لحالات الضجر واليأس، سيّما إذا ما امتزجت كلماتهَا بلحن بديع حتى يظنّها الناس ترياقًا لأوجاعهم.

لكنها دون شك محاولات يائسة للإجابة عن أكثر الأسئلة إلحاحًا: (ما هي الحياة؟) سؤال لا يمكن تجاهله ولا يمكن أن تكون له إجابة واحدة. عكف على دراسته فلاسفة ومفكرون ولا تزل إجابته ناقصة. طريق يتفرع حول الغاية أو السبب: ما حكمة الحياة؟ ما غاية وجود الإنسان؟ إذ أن الإنسان في حالات حزنه أو عندما يفقد شخصًا عزيزًاغالبًا ما يقول: (ما تعني حياتي الآن بعد ما رحل فلان؟) وكأن الحياة تتمثل في هذا الشخص الذي مات أو قرّر الرحيل لسبب ما. أو عندما يفترق أحدهم بعد ارتباط عاطفي طويل الأمد غالبا ما يكرر عبارة: (لقد أضعت حياتي). ما الحياة إذا؟ أهي حقيقة أم مجاز؟ هل أسرفنا في الكتابة والغناء عن الحياة حتى ازدادت غموضًا؟ هل تسكننا أم نسكن فيها؟ الحياة هذا السؤال الأكبر، هذا الغموض المتنامي.

من خلال التجارب والمشاهد التي تمرّ على المرء في طفولته وصباه، ومن ما يتراكم لديه في الذاكرة تتشكل لديه جملة صور وتأملات في الحياة. لازلت أتذكر المشهد الذي رأيته أيام مراهقتي عندما كنت والأهل في زيارة للبنان، كنا نستقل الباص عابرين لطريق جبلي وعر، حيث كان بالإمكان رؤية باحات البيوت من علو، فرأيت بيتاً يقام فيه عرساً، وفي صدر الباحة يقف كل من العروس والعريس وفي الزاوية مجموعة نسوة ترقصن. وبمسافة أمتار فقط، كان بيت يقام فيه مأتماً، الجمع جالس في باحة البيت ضمن كراسي منظمة، مرتدين الأسود ويحفهم الحزن. رغم أني رأيت هذا المشهد قبل عشرين عاماً، لكنه لا زال حاضرًا في ذاكرتي. بل إنه بصورة ما يرتبط بمفهوم الحياة في مخيلتي. فالمسافة بين البيت السعيد والبيت الحزين تشبه الحياة في تعريفها الغامض. وفي فترة التسعينات عُرض مسلسل كرتوني اسمه (هذي هي الحياة)، وكانت فكرته قائمة على تصوير العمليات الحيوية داخل جسم الإنسان كاستعراض وظيفة كريات الدم البيضاء والحمراء والأجسام المضادة بشكل كارتوني طبعا، وكفاحها في الداخل ليعيش هذا الإنسان معافى وسعيداً من الخارج. فإذا ظهر على الشاشة طفل شاحب وغير سعيد هذا يعني أن صحته مضطربه وحياته لا تسير ضمن نسق مرتب، والعكس صحيح . ولعل هذا أحد أول التفسيرات التي عرفتها عن الحياة عبر هذا المسلسل الكارتوني، صورة غير كاملة بالطبع لكنها مهمة– إذ أن الحياة لها معناها العلمي الفسيولوجي المتصل بنمو الكائنات، استمرارية بقاء الإنسان، صحته العامة وجسده، إلى جانب معناها الفيزيائي التجريدي والمرتبط بالكون ونشأته. وصولاً لمعناها الجوهري الوجودي، الروحي، والفلسفي المتعلق بكينونة الإنسان وفرادته. كما يتعمق المعنى الأخير ليتشابك ومفاهيم أخرى مثل الإيمان والوجود والسعادة والحرية.

ناهيك عن الأفكار الربانية عن غاية الوجود الإنساني، تلك التي تلقيتها أول مرة من جدتي.

واقعًا لو جربت أن توجه هذا السؤال (ماهي الحياة؟) لفئات مختلفة من الناس، ستحصل بالطبع على أجوبة متنوعة تتباين حسب الخلفيات الإيديولوجية، أنماط التفكير، المعيشة ومستوى الثقافة. الإنسان العادي: الذي تقتصر ثقافته على قراءة معلومات متفرقة أغلبها ترهات تصله عبر ال»سوشال ميديا»، قد يجيب بأن الحياة هي الروابط الاجتماعية، الخروج من البيت، التسوّق، المطاعم، الذهاب للسينما، السفر، والتنزه. الإنسان المتدين: ستكون له إجاباته اللاهوتية بطبيعة الحال، أنا موجود لأعبد ربي– أعيش لآخرتي، تلك إذا هي غاية وجودي. العاشق الولهان: قد يرى بأن الحياة هي وجوده مع حبيبته. المصرفي: الحياة عنده في الأرقام وفي إجازة مريحة على شاطئ بعيد. والأم قد ترى أن الحياة هي أن يكون أولادها متحلقين من حولها ناجحين، فرحين ومستقرين في بيوتهم. فإذاً الإجابة أيضا قابلة للتغير بتغير الحالة والظروف التي يمر بها الإنسان عبر الزمن.

المثقف، الأديب، الفنان أو الشاعر قد يدلي بأجوبة ذات طابع أدبي، ميتافيزيقي وفلسفي إلى حد ما، كأن يقول: الحياة لا تكتمل دون عنصرالعقل أو الإبداع، على المرء أن يكون مؤمنا بالفن، بالأدب، الموسيقى، بالكتابة لتصبح حياته ذات معنى، وليفهم الحياة عليه أن يكون صاحب إرادة حرة لينجز ويبدع. إلى جانب جرعات من الحب والقليل من البشر المحيطين. لدعم الفكرة والإنجاز. وإلا فما الفرق بين الإنسان والحيوان، فكلاهما يأكل ويشرب ويبحث عن مأوى ويتزاوج.

ضمن سياق البحث عن معنى الحياة، أحبّ كثيرا أن أرجع إلى تسجيل مهم يتحدث فيه المخرج الأمريكي وودي آلن، لما يختصر من حكمة بالغة ومختصرة عن الحياة، يقول فيه: (ليس لقسوة حياتنا إجابات متفائلة مهما حدّثك الفلاسفة وعلماء النفس ورجال الدين، محور الكلام هو دائمًا أن الحياة لها أجندتها الخاصة إنها دائما تقفز فوقك ولا تبالي بك. يوما ما سننتهي كلنا بطريقة سيئة جداً. كل ما يمكن أن تفعله كفنان هو إيجاد شيئا ما لتشرح للناس لم تستحق الحياة أن تعاش؟ وماهي إيجابيتها؟ وطبعا لا تستطيع أن تفعل ذلك دون خداع الناس، لأن الحياة في الحقيقة بلا معنى، فنحن نعيش حياة بلا معنى في كون عشوائي. كل شيء أنجزته سوف يزول، الأرض ستنقرض ومعها ستموت أعمال شكسبير ومايكل أنجلو وبيتهوفن، ومن الصعب إقناع الناس أن ثمة جدوى من كل ما يعيشونه، واستنتاجي هو أن الشيء الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه هو الترفيه وتشتيت العقل.. لابد أن ألهي نفسي وأشتتها، وبذلك أرفه عن نفسي حتى لا أواجه الواقع وأن لا أفكر في موتي وجسدي الهش. حتى أن الفلاسفة العظماء أمثال نيتشه وفرويد ويوجين اتفقوا على أن الواقع مليء بأشياء كثيرة لا يمكن تحمّلها). الخلاصة هو أن تقوم بفعل ما، لتشتت انتباهك ولا تغرق في الأفكار السلبية مثل هل سيصيبني الصلع؟ هل سيزداد وزني أكثر؟هل سأموت؟ هل سيموت أحبائي؟

يظن المرء بأنه لو عمل بمبدأ (حشر مع الناس عيد) بأن يدرس ويعمل ، يتزوج وينجب بأنه عاش حياته كما يجب، وهذا ما يصفه له آباؤنا في العادة على أنه (سنة الحياة). لكن المرء لا بد وأن يصطدم بنفس السؤال في مرحلة ما، فسرعان ما سيطفوسؤال: المعنى من حياتي؟ فتراه يبحث عن فكرة مشروع جديد، أصدقاء جدد، حب جديد ربما، مسكن آخر، هجرة، أبناء أكثر، شهادات أكثر، تجارب جديدة، محاولات أخرى، إلخ إلخ ويظل الصراع قائما داخله ولا ينهيه إلا الموت– الكلمة الأخيرة في رحلة الحياة.

لو رجعنا لمعنى الحياة من وجهة نظر الفلاسفة، سنلمس تبايناً شاسعًا. سارتر مثلا: يدعم الحرية بكل أشكالها ويؤكد على الفردية، (أنا حر إذا أنا موجود). جوهر الحياة حسب فلسفته: أن يعيش المرء حراً وأن يتحمل مسؤولية اختياره. بينما ذهب شوبنهاور: المعروف بفلسفته التشاؤمية إلى أن الحياة ماهي إلا شر مطلق وكان قد بجل العدم في العديد من مؤلفاته. بينما رأى هيغل: الذي وصف الحياة في ألمانيا ذات مرةعلى إنها: (حياة متحركة للأموات)، لكنه رغم ذلك أكدّ أن الحب هو جوهر الحياة الإنسانية وهدفها، ويرى فيه القوة المحركة للتقدم الإجتماعي والأخلاقي خاصة. واعتبرأفلاطون الباحث عن المثالية: أن الحياة تكمن في تحقيق أقصى درجات المعرفة. وقال أرسطو: إن الحياة السعيدة للإنسان هي تلك التي يحكمها العقل، وبذلك يتشابه مع رأي سبينوزا: في أن العقلانية هي هدف الحياة الإنسانية، وهي أيضا وسيلة لهذا الهدف.

إن المتاهة التي توقعنا فيها ديناميكية الحياة بكل تطوراتها في العلم والسياسة والتكنولوجيا تولد لدى الإنسان هذا الشعور الطبيعي بأنه فاشل ووحيد مهما امتزج أو أنجز، الأمر الذي ساهم في الآونة الأخيرة في تضخم كل من مجالات تنمية الموارد البشرية والبرمجة اللغوية العصبية، علم طاقة الجذب وخرافات أسرارالإيجابية، والعلاجات الروحانية التأملية كالريكي وما يعرف ب ال (Pranic healing)، وما هي في المحصلة إلا وسائل ابتدعها الإنسان ليشتت بها نفسه مخافة الغرق في السؤال الأكبر.

لماذا الإشتراكية؟ (١ - ٢)

بقلم:
Albert Einstein

ألبرت أينشتاين Albert Einstein هو عالم الفيزياء العالمي الشهير. تم نشر هذا المقال أساساً في العددَ الأول من المجلة اليسارية Monthly Review (مايو 1949). وتم نشرهُ بعد ذلك في مايو 1998 إحتفاءً بالعدد الأول من لمجلة Monthly Review لمرور خمسين عاماً على إصدار المجلة.

المُحرر

هل من المُستحسن لشخص ليس خبيراً في المسائل الاقتصادية والاجتماعية التعبير عن وجهة نظرهُ حول موضوع الإشتراكية؟ أعتقد لعدة أسباب أنهُ يمكنهُ ذلك.

دعونا أولاً ننظر إلى المسألة من وجهة نظر المعرفة العلمية. قد يبدو أنهُ لا توجد فروق منهجية أساسية بين علم الفلك والإقتصاد: يُحاول العُلماء في كلا الحقلين اكتشاف قوانين القبول العام لمجموعة مُحددة من الظواهر لجعل الاتصال البيني لهذهِ الظواهر مفهوم بوضوح قدر الإمكان.

ولكن في الواقع إن مثل هذه الفروق المنهجية موجودة بالفعل. إن اكتشاف القوانين العامة في مجال الاقتصاد أصبح صعباً بسبب ظرف أن الظواهر الاقتصادية المُراد دراستها غالباً ما تتأثر بالعديد من العوامل التي من الصعب جداً تقييمها كُلٌ على حِدة. علاوة على أن التجارب التي تراكمت مُنذُ بداية ما يُسمى الفترة الحضارية من تاريخ البشرية – كما هي معروفة جيداً – تأثرت إلى حد كبير وأصبحت محدودة بأسباب ليست اقتصادية بطبيعتها بأي حال من الأحوال.

على سبيل المثال، مُعظم الدول الكُبرى في التاريخ تُدين بإنتعاشها وإزدهارها بل ووجودها لحروب الغزو التي شنتها ضد الآخر. تأسس الشعوب الغازية نفسها من الناحية القانونية والاقتصادية، كطبقة مُميّزة في البلاد المُستعَمرة. احتجزوا لأنفُسهم احتكار مُلكية الأرض وعيّنوا كهنوتاً من بين صفوفهم. يقوم الكاهن المسئول عن التعليم بإنشاء التقسيم الطبقي في المجتمع كمؤسسة دائمة ويُنشئ نظاماً للقيم الذي عن طريقهِ يُصبح الناس من الآن فصاعداً، غالباً دون وعي منهم، مُسيّرون في سلوكهم الاجتماعي.

ولكن التقليد التاريخي للأمس، إذا صح التعبير، لم نتجاوزه في الحقيقة بأي شكل من الأشكال، الذي سماه Thorstein Veblen "مرحلة المُفترس" من التطوّر البشري. إن الحقائق الاقتصادية الملحوظة تنتمي إلى تلك المرحلة، وحتى مثل هذه القوانين التي يمكن أن نستمدها منها لا تنطبق على المراحل الأخرى. وبما أن الهدف الحقيقي للإشتراكية هو تحديداً أن تنتصر وتتقدم إلى ما وراء مرحلة الإفتراس من التطوّر البشري، فإن علم الاقتصاد في حالته الراهنة بإمكانه أن يُلقي القليل من الضوء على المجتمع الإشتراكي في المستقبل.

ثانياً، إن الإشتراكية موجّهة نحوَ غاية اجتماعية أخلاقية. إلا أن العلم، لا يستطيع أن يُنشئ الغايات، وحتى أقل من ذلك، يغرسُها في الكائنات البشرية؛ فأقصى ما يستطيع العلم أن يفعله هو أن يوفر لنا الوسائل التي بها نصل إلى غايات مُعيّنة. ولكن الغايات بذاتها صوَّرتها شخصيات بمُثُلٌ أخلاقية سامية – وإذا لم تكُن هذه الغايات قد وُلدت ميّتة، وإنما هي حيوية ونشطة تم اعتمادها والمُضي بها بواسطة تلك الكائنات البشرية العديدة، التي تُحدد وهي نصف واعية التطور البطيء للمجتمع.

ولهذه الأسباب يجبُ أن نكون حذرين ولا نُبالغ في تقدير العلم والأساليب العلمية حينما يتعلق الأمر بمشاكل البشر؛ ولا يجب أن نفترض بأن الخُبراء هُم الوحيدون الذين لهم حق التعبير عن ذاتهم حول قضايا لها تأثير على تنظيم المجتمع.

ترجمة:
غريب عوض

أكّدت أصوات عديدة لفترة من الزمن الآن أن المجتمع البشري يَمُرُ بأزمة، أي أن استقراره قد تحطم على نحو بالغ. ومن خصائص مثل هذا الوضع أن يشعر الأفراد بألا مُبالاة أو حتى عدائين تجاه المجموعة، صغيرة أو كبيرة، التي ينتمون إليها. ولكي أوضح لك مقاصدي عزيزي القارئ، دعني أُسجلُ هُنا تجربتي الشخصية. تناقشتُ مُؤخراً مع إنسان مُثقف واسع الإطلاع حول التهديد بحربٌ أُخرى، والتي برأيي ستكون خطراً على الوجود البشري، وقلتُ وحدها المنظمة الدولية العملاقة هي من يستطيع توفير الحماية من ذلك الخطر. عِند ذلك قال لي زائري بهدوء وروية: "لماذا أنت تُعارض بشدة اختفاء الجنس البشري؟

أنا على يقين من أنهُ مُنذُ أقل من قرن لم يكُن أحداً قد أدلى بتصريح أهون من هذا النوع. إنهُ تصريح لذلك الإنسان الذي سعى عبثاً للوصول إلى توازن في داخل نفسه الذي قليلاً أو كثيراً قد فقد الأمل في النجاح. إنهُ تعبيرٌ عن العِزلة والوحدة المؤلِمة التي يُعاني منها الكثير من الناس هذهِ الأيام. ما هي المشكلة؟ هل يوجد هناك حل؟

من السهل إثارة مثل هذهِ الأسئلة، ولكن من الصعب الإجابة عليها بأية درجة من الثقة. غير أنني يجبُ أن أُجرّب قدر استطاعتي، بالرغم من أنني على وعي بحقيقة أن مشاعِرُنا ومساعينا غالباً ما تكون مُتناقضة وغامضة ولا يمكن التعبير عنها بصياغات بسيطة وسهلة.

إن الإنسان هو كائن وحداني وكائن اجتماعي بنفس الوقت. فهو ككائن وحداني، يُحاول حماية وجودة الذاتي وحماية وجود هؤلاء القريبين لهُ، لكي يُرضي رغباتهِ الشخصية، ويُنمي قُدراتهِ الذاتية. وهو ككائن اجتماعي يسعى للحصول على اعتراف ومحبة الكائنات البشرية الأُخرى، ليُشاركهم سعادتهم، ويواسهم في أحزانهم، وليحسن ظروفهم المعيشية. وحدهُ هذا الوجود للمساعي المُتعددة والمُتضاربة أحياناً يُفسّر الميزة الخاصة التي ينفرد بها الإنسان، وتركيبتها المُعينة تُحدد المدى الذي يُمكّن الفرد من تحقيق التوازن الداخلي ويُمكّنهُ من المُساهمة في رفاهية المجتمع. فمن المُمكن تماماً أن القوة النسبية لهذين المحركين هي بصورة رئيسية ثابتة عن طريق الوراثة. ولكن الشخصية التي تظهر في النهاية تُشكلُها إلى حد كبير البيئة التي يجد الإنسان نفسه فيها أثناء نموه وتطوره بواسطة بُنية المجتمع الذي يتربى فيه، بعادات وتقاليد ذلك المجتمع، وبتقييم ذلك المجتمع لأنواع مُعيّنة من السلوك.

ما يعنيه المفهوم النظري "المجتمع" للكائن البشري الفرد والمجموع الكُلي لعلاقاتهِ المُباشرة وغير المُباشرة لمُعاصريه ولجميع الناس من الأجيال السابقة.إن الفرد قادر على التفكير والإحساس والكفاح والعمل بمُفردِه؛ ولكنهُ يعتمد كثيراً على المجتمع – في وجوده الجسماني والثقافي والعاطفي – حيثُ من المستحيل أن تتصوّره أو أن تفهمهُ خارج إطار المجتمع. إن "المجتمع" هو الذي يُقدّم للإنسان الطعام والملبس والمسكن وأدوات العمل واللغة وأشكال التفكير ومعظم محتوى التفكير؛ فحياتهُ أصبحت مُمكنة من خلال العمل وإنجازات الملايين العديدة من البشر في الماضي والحاضر الذين يختبئون جميعاً خلف العالَم الصغير "المُجتمع".

من الواضح، إذن، أن اعتماد الفرد على المجتمع هو حقيقة طبيعية لا يمكن إلغاؤها كما هو الحال مع النمل والنحل. غير أنهُ، في حين أن كامل عملية حياة النمل والنحل مُقررة بتفاصيلها الصغيرة عن طريق الغرائز الوراثية، فإن النمط الاجتماعي والعلاقات البينية للكائنات البشرية مُتباينة جداً وعرضة للتغيير. الذاكرة، والقدرة على تكوين مجموعات جديدة، وموهبة الاتصال الشفوي جعلت التطورات المحتملة بين البشر لا تُمليها الضرورات البيولوجية. إن مثل هذه التطورات تتمثل في العادات والمؤسسات والمُنظمات؛ في الأدب وفي الإنجازات العلمية والهندسية؛ وفي الأعمال الفنية. وهذا يوضح كيف يحدث، أن إحساس مُعيّن، يستطيع الإنسان أن يؤثر في حياتهِ من خلال تصرفه الذاتي، وفي هذه العملية يُمكن للتفكير الواعي والرغبة أن تلعب دوراً.

من وحي كتاب هوكينج: «تاريخ موجز للزمان»

على العقل أن يبحث دائمًا

قال أحد أقربائي مرة بأن العقل البشري يعجز لمحدوديته عن استيعاب كل شيء في الوجود، لكني كنت أرى بأنه إذا كان الإنسان يعجز عن فهم كل الأسرار الكونية لمحدودية عقله، فإن الحالة التي تليق بهذا الإنسان هي البحث الدائم.

أحمد السعيد

حين تقرأ لأعظم فيزيائي في هذا العصرستيفن هوكينج كتابه: "تاريخ موجز للزمان – من االانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء" فإنك تشعر بأن مقولة: "كلما عرف الإنسان ازداد جهلا". هي مقولة صادقة إلى حد بعيد، حيث لا شيء يمكن أن يتم التصديق عليه بضمانة أبدية على أنه حقيقة مطلقة، وخصوصا حين يتعلق الأمر بما يمكن للعلم أن يتوصل له من حسابات. ذلك أمر يتطور سريعا، فقبل ثلاثين سنة تقريبا كان الإنسان يعتقد أن أصغر أجزاء الذرة تتشكل من إلكترون وبروتون ونيوترون، والآن هناك الكوارك الذي تتكون منه هذه الجزيئات الصغيرة.

بماذا يفيد دراسة أصغر أجزاء المادة؟

إن دراسة أصغر أجزاء المادة يمكن أن تقود لاكتشاف الميكانيكا التي يسير عليها هذا الكون الكبير من كيفية انتقال الطاقة بين الأجسام إلى أصل الكون ومصيره وحجم تمدده أو إمكانية تقلصه، فما هو صغير جدا يرتبط بما هو كبير جدا. وأعادني ذلك إلى ما أورده العلامة الشهيد حسين مروة في كتابه "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية" عن إبراهيم بن سيار الملقب بالنَظّام، وهو واحد من متكلمي المعتزلة، عاش في فترة كانت على أبواب انتقال الفكر العربي من علم الكلام إلى الفلسفة الخالصة. فمثلا كان النَظّام يعتقد بالسائد أنذاك من أن المادة لها جزء متناه في الصغر لا يتجزأ أبداً، وحين اطلع إبراهيم على افكار الفيلسوف اليوناني ديموقريطس الذري، آمن بحججه المنطقية القائلة بأن جزيء المادة يتجزء إلى ما ليس له نهاية من الأجزاء، وإذا كانت مادة الكون غير متناهية في تجزُّئها، فإن ذلك يقود إلى أنه ليس للكون بداية محددة.

حسب رأي هوكينغ يتوقف العلم البشري عند حدود لا يمكن أن تفسرها النظرية، فمثلا كل القوانين الفيزيائية من النسبية إلى ميكانيكا الكم ومبدأ الريبة، ودراسة الجزيئات تتعلق بالزمان والمكان الذي نحن فيه، ولا يمكن للعلم أن يفسر ماذا كان قبل الانفجار الكبير، أو ماذا يحدث داخل الثقوب السوداء، لأن الزمان يكون منحنياً كلياً على المكان هناك، ويشكل صفراً لا متناه، فلا يمكن التنبؤ بما الذي يحدث عندها.

لذا، وضع الفيزيائيون نظريات تفسيرية مثل الأوتار الفائقة أو تعدد الأكوان. ويبدو أن هوكينغ أراد أن يبدأ حديث كتابه بقصة بين برتراندراسل وعجوزة ما، ليكسر ابسط ما تناهى إلى مسامعنا من بديهيات وندخل إلى كتابه بعقل فارغ ومتقد في آن، حيث يقال: "إن برتراند راسل ألقى محاضرة عن علم الفلك مرة وقال: بأن الأرض تدور حول الشمس، وأن الشمس بدورها تدور مع مجموعة من النجوم على مركز يسمى مجرتنا. فنهضت عجوز وقالت: هذا هراء. فالعالم كصفحة مسطحة على ظهر سلحفاه. فابتسم راسل في تعال وقال: ما الذي تقف عليه السلحفاة إذن. فقالت العجوز: إنك لشاب بارع، ولكن الأمر عندي كله سلاحف بطول الطريق إلى أسفل". يقول هوكينغ: سيجد معظم الناس موضوع أن الكون كبرج من السلاحف مضحكا، ولكن لماذا نعتقد أن ما نعرفه هو الأفضل؟

أعتقد أن هذا الكتاب يمكن أن يكون مدخلاً جيداً للقارئ غير المختص في معرفة أسرار ما هو كبير جدا وماهو صغير جدا في هذا الكون، ويُعتبر هوكينغ متفرداً في محاولة البحث عن نظرية تجمع أعظم نظريتين فيزيائيتين في التاريخ الحديث، هي: النسبية العامة وميكانيكا الكم.

الحرية إلى أبعد حد

عن أي حرية نتحدث ما دامت أجسادنا أول السجون التي نسكنها؟ نأتي من العالم الآخر ونحن معلّبون في أجساد ضيقة، وأخرى فضفاضة وأخرى مضعضعة؟
نشتهي أن نكون في أجساد أجمل ولكن الأمور ليست سهلة كما قد يعتقد البعض، فمن يأتي لا يمكن أن يعود إلى "الهناك" إلاّ بعد أن يكون قد دفع الثمن غاليا، ومضي في حياةٍ فرضت عليه بكاملها، يجهل متى ستأتي نهايتها، وقد أجبر أن يتقبل ما جُبِل عليه من شهوات ورغبات ونزوات، وقد يتمكن من قمع بعضها في داخله، لكن من الصعوبة أن يفلت من الرغبة في الحياة، سيقاتل من أجلها، سيسفك الدماء، ويمارس أحقر الأفعال ليبقى على قيد الحياة .

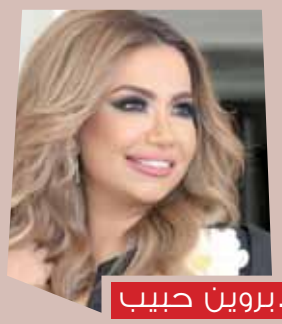

د.بروين حبيب

سخافة هذا الأمر قد لا نشعر بها إلاّ في اللحظات الأخيرة التي تسبق الموت، لكن في خضم الحياة، نكون حاملين أسلحتنا ونخوض الحرب التي أوجدنا من أجلها.

فخ الجسد قرأت عنه ذات يوم في كتاب فلسفي جميل للدكتورة منى فياض، صدر عن شركة رياض الريس للكتب والنشر، كتاب لولا الصدفة المحضة لما قرأته، يأخذنا في رحلة الخلق العجيبة، التي تشرح جوهر المكوّن الإنساني بكل تناقضاته من منظور فلسفي سيكولوجي سوسيولوجي أنثروبيولوجي، قلّما نجده مبسطًا بهذه الطريقة في المنشورات العربية .

نصبح رهائن الجسد ومن هذا المنطلق نحن مقيدون إلى الأبد. أمّا مفهوم الحرية فلسوف يظل نسبيًا، نسبيًا أيضا إلى الأبد، طالما نحن عاجزون عن خلع أجسادنا، والسفر بدونها ثم العودة إليها متى ما نشاء.

أنا حرّة لأخرج من البيت، لكني لست حرّة لأدخل كل الأماكن، أنا حرّة لإرتداء النقاب، لكني لست حرة لارتداء المايوه، يرتبط مفهوم الحرية بالجماعة والمكان والزمان والتشريعات البشرية المتنوعة وحتى بقوانين الغاب.

يستحيل أن نطلق العنان لأجسادنا في أوساط لا ننتمي إليها، إذ أن الحرص وليد الخوف من كل ما يتهدّد الجسد، ونحن حسب هذا الأمر الصريح لا ندري هل أجسادنا ملك لنا أم أننا ملك لها؟

في مقال سابق تحدثتُ عن الحرية من منطلق أنها فعل يمضي إلى أقاصي الرغبة، وقد ناقشته من حيث أنواع التجريب التي أخضعت له.

وقد توصلت معكم إلى أن الحرية ليست نفسها في نظر السياسي كما هي عند المثقف، وليست نفسها عند رجل العلم كما هي عند رجل الإقتصاد، فحيثما يكون الأفق الحر مطلوبًا، نجد من يحاصر ذلك الأفق خوفًا من زحزحة كيانه والإخلال بتوازنه.

ومع هذا بإمكاننا أن نخلص لمفهوم مشترك وهو أن ما نعنيه بالحرية هو تخفيف القيود التي تكبل الإنسان ولكن بشروط، وكأننا نعيد إلى الأذهان تلك المقولة القديمة – أو القاعدة التي خرجت بها الفلسفة التنويرية حول مفهوم الحرية – والتي تقول: "حريتك تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين" ولكن بشكل أكثر حدة.

تُرسَم الحرية بخُطوط متفق عليها على أرض الله، وهي بذلك تحدد الممنوع والمباح، وأي تخطٍّ للممنوع يبيح إعلان الحرب على الآخر. الحرية ليست بيضاء، وليست غصن زيتون مسالم، إنها أسلحة وجيوش وعصابات وكثير من الدماء، إذ لا يمكن إقتلاع هذه « الحرية" بسهولة كما تُقطف الفاكهة الطازجة.

ولطالما تغنّى بها الشعراء مقترنة بالدماء وقوافل الشهداء، مع كثير من الفخر والإعتزاز، بكل ذلك المسرح الدموي الذي يسبق لحظة النصر، طبعا إن وجدت حقا تلك اللحظة.

في الأدب وفي الأدب والشعر والمسرح وحتى في نشرات الأخبار، الموت قرين لهذه الحرية التي لا ترضى إلا بالتهام الأرواح قبل أن تمنح بركتها لمن ناضل من أجلها.

ينحرف المعنى كثيرا حين تصبح الحرية غاية تبرر الوسيلة، وحين تخرج عن نطاقها الإنساني لاحترام الآخر، فردا أو جماعة، أو وطن، وهذا يعيد إلى أذهاننا أهم الحملات الإستعمارية التي طوقت شعوبا بأراضيهم وممتلكاتهم باسم تحريرهم من شيء القمع والدكتاتوريات الحاكمة، وتلك كانت أقسى وأخطر المعاهدات تاريخيا إذ قايضت الحرية بالسلطة، من وجهة النظر الدلالية تُسَنُّ مجموعة من القيود أمام قابلية تعديلها، أو جعلها ممكنة الإختراق للتصرف وفق نطاق ضيق لا يعطي الصلاحيات الكاملة للطرف المتنازل عن السلطة.

يمكننا إذن عبر مسح ميتافيزيقي وآخر اجتماعي سياسي للموضوع أن نُكَوِّن نظرة شاملة حول مقصدنا، ولو بشكل ناقص، لكنه سيمثل حتما تسهيلا لتعزيز قراءته والخروج باستنتاجات جديدة، تعيد الإنسان إلى عقلانيته، أو لنقل إلى فطرته المسالمة، والتوغُّل في الذات لتحريرها قبل الدخول في معارك دامية من أجل مفهوم فضفاض صعب التحقق على المستوى الإجتماعي السياسي .

متى نشعر بالحرية إذن؟

يعتقد أغلبنا أن حريته مرهونة بعدم تدخل أحد في أموره الشخصية، كما يعتقد الكاتب أو الصحفي أن حريته تتحقق حين تُحترم كلمته، ولا تبتر، إلى غير ذلك من تفسيرات مرتبطة بالحياة الشخصية أو المهنة أو غيرها.

لكني أعتقد جازمة أن مفهوم الحرية في زمن مواقع التواصل الإجتماعي أصبح محنة كبيرة لدى المستخدمين، فكلما اتسعت دائرة الضوء التي يتعرض لها الشخص كلما ضاقت حريته، وكلما تحوّلت حياته إلى جحيم، والغريب أن دائرة الضوء تلك هي التي تحدد مساحة نجاحه، إذ ترفع أرقام المتابعين أسهمه في عالم الشهرة والعرض والطلب، بحيث يرضخ هذا « الشهير" للقواعد التي يفرضها عليه متابعوه، فيغير في شكله وطريقة عيشه، بحيث قد يصبح ممثلا بارعًا، يمثل الأدوار المطلوبة منه أكثر مما يعيش حياته الحقيقية، وهذا في حد ذاته نوع من الإرهاب النفسي الذي يتعرّض له ويسلب منه أدنى شعور بالراحة والطمأنينة .

تحت الضوء أيضا تجتازنا الآراء المُنَكِّلة بنا وبآبائنا وأمهاتنا، ولا من قدرة لنا على ملاحقة المئات قضائيا أو على الأقل إغلاق منابرهم التي ينفثون منها سمومهم على من يخالفهم الرأي.

نحن نعيش زمنًا يشهد على صراع الحريات نفسها فيما بينها، رغم أننا أفضل حالا من أزمان مضت من حيث الحريات الفردية التي ننعم بها. فلماذا هذا الجنون أمن أجل مزيد من الإنتشار؟ ألا تكفينا حرية التفكير وحرية الحلم مقارنة مع حرية المأكل والمشرب والملبس التي عادة ما تكون هدفا لأعداء الحرية، ألا تكفينا حرياتنا الصغيرة، في النوم واليقظة، وترتيب الذكريات، وحب من نحب وكراهية من نكره، في ممارسة هواياتنا السرية، من كتابة اليوميات إلى كتابة الشعر والحكايات.

نعم مساحة الحرية ضيقة، لكنها تناسب صغر هذا الكائن الذي يسمى» الإنسان "، فهو ليس بحاجة لحرية بحجم مجرّة، هو بحاجة لمقدار منها فقط تحت ظل الحب، فطالما كان الحب صحيحا، توفرت الحريات بدون قيود.

تقطيع النثر

حركة النصوص النثرية ذات الطبيعة الشعرية

ما الذي يجذبنا لنص ما؟

كما أي فن، كما أي سحر، فإننا نفقد اندهاشنا من القصيدة ما حين نعرف سرّها، وحين نكرّر اللعب معها نفقد شغفنا بها شيئاً فشيئاً. إن طاقة الشعر على الخلق لابد أن تكون متجددة، لذا فإن سرّه لابد أن يكون مجهولاً، وإن كنا نتفق على أن الشعر والمجاز هما أهمّ ما يطوّر اللغة، فإن هذه اللعبة التي تبدو طفولية وعبثية هي حيلة الطبيعة لجذبنا إلى تطوير لغتنا، ومن ثم أفكارنا ومشاعرنا. وها نحن كائنات بيولوجية تنخدع برغبة أو دون إرادة للغة التي تملكها. ولهذا فإن الشعر بالرغم من كونه فعل اختياري للكائن الفرد، يقوم به الإنسان بمحض إرادته، لكنه في الوقت عينه، فعل جبري بالنسبة للنوع، لابد له أن يمارسه، سواء أراد ذلك أم لم يرد، وكأن حياتنا ككائنات عاقلة مرتهنة بالشعر نفسه، كما أن حياتنا ككائنات بيولوجية مرتهنة بالتنفس أو بقية الحاجات الأساسية الفطرية الأخرى، ولكي نقوم (كنوع) بواجبنا الذي يبقينا على قيد الحياة (العاقلة)، فإن الطبيعة تمارس علينا سلطتها إما بفرض هذا الفعل الواجب، بطريق الحاجة، أو بإغرائنا للقيام به عن طريق الجذب.

مهدي سلمان

هل يعني هذا أن الإنسان سيفقد كيانه حين يفقد الشعر؟ هل يعني هذا أن الطبيعة تدخلت وما تزال لتغرينا بالشعر؟ وأن الشعر هو مصير الإنسان وقدره، وليس هامشاً ترفيهياً على الحياة نفسها؟ أو إضافة اخترعها الإنسان ليقضي بها على الخوف أو مرض الحياة. أزعم أن الأمر بين هذا وذاك، ليس صحيحاً تماماً، ولا خطأ مطلقاً، كل ذلك يعود لما نعنيه بكلمة (الشعر).

وما أعنيه هنا منه ليس إلا الموسيقى، الموسيقى باعتبارها النظام الجامع للمشاعر الغامضة التي تعترينا وتجبرنا على التعبير عنها ومنها تنبثق المعاني، والأصوات التي عبّر من خلالها الإنسان القديم عن هذه المشاعر ومنها كانت المباني، فكانت أولاً آهات بشرية متقطعة، ثم شيئاً فشيئاً تحوّلت إلى ما يشبه العويل، ثم تطوّرت مع تنغيمها لتكون أشبه بالغناء، ثم مع ازدياد هذه المقاطع الصوتية المغناة ترافق الشعر مع اللغة ينحت أحدهما الآخر، في شكلهما الصوتي، فكان الشعر، غناء صيادين أو رعاة، في كهوف قديمة أو وديان سحيقة، وكانت اللغة بناءً تراكمياً لهذه الأصوات التي (نملّها) والتي نشعر أنها لا تستطيع التعبير عما يعترينا، فتُلجئنا الطبيعة إلى ابتكار المزيد والمزيد منها، وحفظ السابق منها بوسائل متعددة، من الشفاهية الأولى، حتى الترميز في أشكال وحروف، حتى حفظها على أقراص أو اسطوانات، لم يكن الشعر إلا موسيقى، قبل اختراع المفردات، قبل اختراع اللغة نفسها وتطويرها عبر هذه العملية نفسها، كان الشعر موسيقى الصوت البشري، وقد بقي لفترة طويلة معتمداً على الموسيقى، ولا يمكنه التخلص من الموسيقى التي هي ليست بنيته الصوتية فحسب إنما بنيته الشعورية كذلك، الأصوات التي بدأت بالآه (مبنى) أولاً للتعبير عن الألم (معنى) مثلاً، ثم تطورّت إلى ألفاظ، وكلمات، وتعقّدت هذه المفردات كثيراً لتفهم ماهيته، لكن في سياق آخر اشتغلت بعض الفنون على تبسيط هذا الفهم المعقد على شكل أصوات كذلك. وبذلك فإنني أعني أن أجل، سيفقد الإنسان كيانه حين يفقد الشعر / الموسيقى، ولن تتركه الطبيعة يفقدهما، ليس وهو (كنوع) بهذا القدر من الحساسية، ومن الغربة، ومن الرغبة الغريبة والجامحة في التعبير عن الغامض القصي في نفسه بالموسيقى، وبالشعر.

إذن؛ ما الذي يجذبنا إلى نص ما؟ أليس قدرته على التعبير بموسيقاه عن موسيقانا الداخلية، أليس ذلك السحر الغامض، والدهشة التي نبحث عنها في الصوت الخفيّ في أرواحنا؟ أليس هو التعبير اللامتناهي بأصوات لا محدودة –تجعلها هذه الكثرة مجهولة– عن تعقيدات مشاعرنا وأفكارنا؟ وهكذا تغرينا الطبيعة، مرة بعد أخرى، ودون نهاية بفكرة التعبير بالشعر / الموسيقى، فكرة إيجاد صوت مناسب يفسّر ولو للحظات، غموض مشاعرنا وأفكارنا. إنها بذلك تجبرنا على التفكير، إنها بهذه الحساسية التي منحتنا كنوع يشعر بغربة ورغبة في التعبير عنها، تجبرنا على استخدام هبَتها الأجمل لنا، عقولنا، وكأن الكائن البشري لا يمكن أن يستخدم عقله بطاقته المناسبة إلا مع شعوره بهذه الموسيقى التي فيه، وبشعوره بهذه الغربة والتوهان وتوقه إلى التعبير عنهما.

إنني أقترح (بشعرية هنا) أن الإنسان استخدم عقله لا من أجل إيجاد الطعام، ولا من أجل الجنس، ولا من أجل بقية الحاجات الأخرى التي يشترك فيها مع الحيوان، إنما استخدمه ليجرّب مرة أخرى إصدار صوت مقارب لتلك الموسيقى التي تصدح داخله ولا يجد لها تفسيراً، وسيظل يستخدمه ليفهم ذلك الصوت، ولن يفهمه، لأنه حيلة الطبيعة لربطه باللغة، ولأن اللغة هي الوسيلة التي تجعل عقله قادراً على شرح أفكاره ومشاعره، أو محاولة ذلك على الأقل، ومن كل ذلك تنسلّ المعاني والأفكار والمشاعر، كما تنسلّ الأصوات والمجازات والموسيقى.

هذا ما فعلته الطبيعة ببساطة، أعطتنا عقلاً، ولكي تجبرنا على استخدامه، أعطتنا المشاعر وتعقيداتها والأفكار وتشعباتها، ولكي تطمئن إلى تجدد استخدامه كان لابد لها من منحنا الشعور بالغربة، وحساسية ورغبة التعبير عنها، باللغة/ الصوت/ الموسيقى، وهكذا من أجل أن نجد الصوت الأنسب فإننا لابد أن نشعر بقصور اللغة، وهكذا في حركة لا منتهية، تقصر اللغة عن شرح ما نريد التعبير عنه، فنلجأ إلى الصوت والموسيقى، التي تقدّم بدورها تأويلات لهذه الفكرة أو ذلك الشعور، تقترب من ملامسته حيناً، وتبتعد أحيان، وهكذا علينا ككائنات بشرية أن نطور اللغة والموسيقى مجبرين، وأن نكتبهما مجبرين.

نستطيع تقسيم الأمر إلى دائرتين، في الدائرة الأولى هنالك التحدث إلى الذات، وفي الثانية هنالك التحدث إلى الآخرين، في الأولى يكمن الشعر والغناء والموسيقى، وفي الثانية يكمن الخطاب والحوار، ولن يكون الإنسان قادراً، أو مهتماً بالدائرة الثانية، التي منها ستتكون اللغة كمنظومة رموز، ما لم يبدأ بالدائرة الأولى التي منها ستتكون اللغة كمنظومة أصوات، وكلا الدائرتين يحركهما مجموعة من المشاعر والأفكار الغامضة والواضحة، ورغبة في الغناء أوجدتها الطبيعة فينا، مثلما أوجدتها في أي طائر مغرّد، لكن بفارق أنها –أي الطبيعة– أوجدت فينا كذلك رغبة البحث عن السرّ في السحر أي الشعر أو الفن، عبر منحنا قدراً عالياً من الحساسية والغربة والرغبة في التعبير عبر موسيقى موجودة داخلنا، لكننا لا نعرف ما هي، ولن نعرف.

هل تؤثر الموسيقى في معنى النص؟

لسنا معزولين عن اللغة، فاللغة التي نفكر بها، تؤثر كثيراً في طريقة تفكيرنا، وترتيبنا للأمور، في نظرتنا للأشياء، عدد حروف هذه اللغة يؤثر في طريقة اختبار مشاعرنا، حركات اللغة في العربية، المقاطع الصوتية التي تتشكل منها المفردات، الحروف الشمسية والقمرية، كل ظاهرة من ظواهر لغة ما، تؤثر في متحدثيها، وتؤثر في طريقة تفكيرهم، إننا لا نختار المفردات والتراكيب والجمل التي نعبّر من خلالها عن مشاعرنا وأفكارنا تماماً، بل في أحيان كثيرة وخصوصاً في النصوص ذات الطبيعة الشعرية، فإن هذه المفردات والتراكيب تختار بعضها بعضاً، فمن الممكن أن ينحرف النص عن بدايته ليذهب في اتجاهات أخرى

■ تلجأ اللغة إلى مخزونها الكلي لتسدّ الفجوات وتضيء المناطق المظلمة وتهتدي إلى علامات تسترشد بها

■ الموسيقى الداخلية لا تعتمد على مشاعرنا فحسب، وإنما مشاعر أجدادنا الذين نحتوا مفردات لغتنا

من خلال مفردة تشي له بمفردة سواها، أو تركيب يشي للكاتب بتركيب قريب، أو صورة بصورة، وهكذا. في كثير من الكتابات قد يكون الكاتب متحكماً (بدرجة أو بأخرى) بما يكتب، لكن في الغالب قد لا يستطيع أن يفعل ذلك طويلاً، دائماً سيكون ثمة صراع بين الكاتب ولغته، هو ليس صراعاً حقيقياً إنما هو حالة من الرقص بينهما، هو يذهب بها في منطقة، وهي تذهب به في منطقة أخرى، وذلك هو ما يوسع اللغة، وذلك ما يوسّع المعاني والأفكار. وهكذا تخلق التراكيب الثابتة والمجازات المستخدمة معاني جديدة، وهكذا يستدعي نظام لغوي ما أفكاراً بعينها، وهكذا فإننا نفكر باللغة، ولو اختبرنا الأمر في شكل ما يسمى بالتداعي الحرّ، فإننا سنجد أننا نفعل ذلك بطريقة تلقائية، وكلما جرّبنا الأمر مرة بعد أخرى، واستطعنا فعل الأمر بتلقائية أكثر، فإننا سنعرف أن التداعي الحر ليس فوضى، إنما هو انسلال معان من معان، وترك الذاكرة والخبرات الذاتية تعمل بالتعاون مع اللغة، على التفكير في أمر أو أمور متعددة، ومن هنا يمكن تشبيهها بعبور الغابة المظلمة أو المتاهة، لكن بحسّ العارف والخبير، أو على الأقل بحسّ الحذر المتنبه.

فكرة التداعي الحرّ، واستعمال اللغة كموجّه عشوائي لأفكار عشوائية (فيما يتعلق بالنصوص ذات الطبيعة الشعرية) يخلق نصوصاً جديدة، أو أفكاراً مختلفة في النص. وهنا كذلك لا نعني بالعشوائية الفوضى، بل ذلك الحذر المتيقظ الذي يحرّكنا لدى التحرّك في الظلمة أو المتاهة.

إن اللغة تعتمد على ذاكرتها لدى شعورها بالظلمة والمتاهة، كما يعتمد أحدنا على ذاكرته لدى ذلك. هي تفعّل خياراتها الأخرى، مثل الحذر، والحدس، والتوقع والتحسس والتوجّس وغيرها، كما نفعل نحن ذلك عادة، لذا فإنها (وبالاعتماد على الذاكرة اللغوية لكل فرد) تلجأ إلى مخزونها الكلّي، لتسدّ من خلاله الفجوات، أو تضيء المناطق المظلمة، أو تهتدي إلى علامات تسترشد بها نحو الطريق. وهذا ما يستدعي منا أن نزيد من مخزون هذه الذاكرة اللغوية لدينا، من أجل أن نعطي لغتنا القدرة على إرشاد نفسها، حين يتعسّر الأمر علينا في التعبير عن ذلك المجهول الذي نودّ أن نقوله.

إذن، ما هي الموسيقى في الكتابة الشعرية؟

قد يبدو مألوفاً القول إن الموسيقى الداخلية، هي تأثير تناسق الحروف والجمل والتراكيب والصور والمعاني والمشاعر على النص، لكن غالباً يبقى هذا القول غامضاً، إذ كيف تفعل ذلك؟ كيف تتحد هذه الأدوات لتفعل ذلك؟ بل كيف نستطيع أن نقيس تأثير كل ذلك في مقطع نثري أو شعري واحد؟

تؤثر الموسيقى الداخلية تأثيراً مباشراً في علاقة المتلقي بالنص، بل إن الدافع وراء النص غالباً ما يكون مزيجاً بين هذين، أي بين تكوين موسيقى داخلية للتأثير في النفس الكاتبة أولاً، وفي المتلقي بالتالي. واستعداد المتلقي لهذه الموسيقى عبر ثقافته وحساسيته السابقة.

الموسيقى الداخلية للنصوص تشغيل للحواس جميعها، السمع في موسيقى الحروف والمفردات، الرؤية في تخيل الأشكال لدى التصوير، اللمس في تحسس الأشكال، التذوق، الشم.. التأمل، والتذكّر، ومن دون الاعتماد على الذاكرة البشرية عموماً، والعِرقية اللغوية في الاعتبار الثقافي خصوصاً، لا يمكن أن تتناغم الموسيقى الداخلية في النص، فما من موسيقى داخلية في الكتابة إلا وشكلها الأساسي متشكل مسبقاً في نفس القارئ، وبحسب القارئ تتشكل موسيقى النص الداخلية.

كما أن الموسيقى الداخلية لا تعتمد على مشاعرنا نحن فحسب، بل على مشاعر أجدادنا الذين نحتوا مفردات لغتنا؛ أولاً بحسب مشاعرهم تجاه الأشياء، وأيضاً بحسب مشاعرهم تجاه الحروف التي منها صيغت هذه المفردات، فهم يقرّبون الأشكال والأشياء والأفعال التي يرونها أو يفكرون فيها أو يقومون بها إلى أصوات هذه الحروف أو أصوات تشبهها، أو أصوات قريبة منها أو مأخوذة عنها، فلنتخيّل إذن أن الحروف لم تكن إلا (موسيقى تصويرية) بلغة اليوم لأحداث معينة جرت لأجدادنا، موسيقى كانت ترمّز الأحداث والأشياء إلى أصوات تعبّر عن مشاعرهم تجاهها، إنني أفترض هنا إذن أنهم لم يكونوا يريدون تسمية الأشياء، بل كانوا يعبّرون عن مشاعرهم تجاهها بهذه الأصوات، وما الأسماء وما اللغة إلا حدثاً عرضياً حدث بعد ذلك نتيجة الصدفة وممارستها لا أكثر، بعد ذلك صاغوا لنا أساليب التركيب لخلق كلمات، ثم جمل، ثم أساليب التصور والتخييل، وفي كل ذلك لابد أن نعرف أن الصوت كان حاضراً، وموجوداً بل إنه دليلهم إلى إيجاد الرمز أو المعادل، وهذا يدعونا إلى معرفة أننا نتحدث اليوم عبر مشاعر أولئك الأجداد، ولنا أن نتخيّل كذلك، الألم الذي شعر به أحد هؤلاء الأجداد، ليجد معادلاً صوتياً لشيء مثل (النخلة) التي ننطقها اليوم بسهولة الناسي غير المكترث، ما الذي دعا هذا الجد ليسم هذه الشجرة بهذا الاسم، وكيف أوجد هو أو أجداده هذا المعادل الصوتي لها؟ من أي عمق في مشاعرهم تجاه هذه الشجرة التي تقف في الصحراء وتعطي الثمر لإنسان ربما يكون ضائعاً وجائعاً خرج الرمز الصوتي (نخلة) أو تخلّق، ليكون امتناناً مثلاً؟ وكيف تتشابك الكلمات بعضها ببعض والحروف بعضها ببعض في نسق معقد من المشاعر واستدعائها والأصوات ودلالاتها؟

وإلى هنا لابد من التأكيد على أهمية قراءة كتب التراث، من أجل أن نتشبع بروح التركيب في جمل لغتنا ومن أجل أن لا تغترب لغتنا عن نفسها في الكتابة، فكلما قرأنا كتاباً مترجماً، علينا في المقابل أن نقرأ كتاباً في التراث، لأننا إذ نكتب بلغتنا فإننا نبحث في قاع لا ندركه من أنفسنا عن موسيقى تصويرية تناسب حالاتنا النفسية التي نكتب بها، فالموسيقى أو أدواتها البلاغية ليست إذن درساً في الكتابة، أو آلياتها، بل نظرية للفهم، وطريقة للاشتغال بالفكر، ووسيلة من وسائل التفكير نفسها، وسبيل من سبل البحث عن المعرفة والمعنى. إنها ثقافة ممتدة لآلاف السنوات، حين لم يكن أجدادك إلا مئات أو آلاف يكتشفون الحياة لأول مرة، وينطقون الحروف بدهشة أكبر من اعتيادنا لها في الوقت الراهن، وكانت تعني بالنسبة لهم أكثر وأهم وأشدّ مما تعني لنا الآن، حين كانت هذه الحروف إذ تتآلف مع بعضها لا تمثّل تسميات ومفردات نكدّسها نحن في القواميس، بل هي مشاعر ربما تصل إلى حد أن تكون قصائد، أو مقطوعات موسيقية لشدّة ما كانت تعبّر عن اقتراح شعوري لشيء أو حدث. وها أنت الآن مسؤول عن الحفاظ على رنين ذلك الصوت أو هذه النبرة، أنت ككاتب، وأنا كقارئ، مشتركين في أجداد لغويين، أورثونا حروفهم، وأورثونا إحساس هذه الحروف.

وبالحديث عن فكرة المعادل الصوتي وتوارث الشعور الصوتي في المفردة، لابد من الحديث عن فكرة التجريد في التجربة، إذ ما الذي يجعلنا نشعر بإحساس ما تجاه حوادث لم نعشها، أو قضايا لم نلتصق بها؟ هل فعلاً نستطيع من خلال القراءة عنها فقط أن نكوّن مشاعر تجاهها؟ هل يمكن للقراءة حقاً أن تشرح أمراً أو فكرة، دون مفاهيم مثل التجريد والترميز، اللذين يعتمدان أساساً على وجود معادل لدى المتلقي، من دونه تفقد الشفرة مضمونها وغايتها، لا يمكن أن يحدث ذلك بالطبع، لكن ما هي المعادلات الموجودة في النفس البشرية، والتي تضمن (إلى حدّ ما) قدرتها على تحليل التجارب واستخلاص مشاعرها وغاياتها منها؟ إننا حين نقرأ عن حدث، أو نسمع قصة، فإننا نستدعي مشاعرنا وأفكارنا الأولى، نعرف الألم، لذا فإن أي ألم، أياً كان مسببه سيستدعي لدينا ألمنا الخاص، وهو معادلنا الذي نفهم من خلاله الألم في القصة، أو الحدث، نعرف الرغبة، وحين يتطلب الأمر نستدعي شعورنا تجاه الرغبة لنعادل به شعور الشخوص في الحدث أو القصة، وهكذا، لابد لنا من معادل داخلنا نربط بينه وبين ما هو موجود في الحكاية أو القصة أو الحدث، وغير ذلك ومن دون وجود المعادل، فإن الأمر سيربكنا، ولن نستطيع فهمه، هذا يحدث في بعض الأمراض النفسية، إذ ينعدم وجود معادل داخل نفس الشخص المريض، فلا يعود يفهم أو يربط بين ما يقال في الحدث، وبين الشيء في داخله، كما أننا كلنا بالتأكيد ينعدم لدينا وجود معادل حقيقي عن الموت، لذا يصبح الموت فكرة غير مفهومة تماماً عندنا، مهما حاولنا إيجاد معادلات خارجية لها، يبقى الغموض هو ما يكتنفها، وكذلك يبقى الموت حاضراً بهذه القوة في حياة الكتّاب والفنانين باعتبارهم أكثر البشر ميلاً للبحث عن المعادلات في أنفسهم، إنه حاضرٌ هكذا ليس لأننا نخشى منه، إنما لأننا لا نجد له معادلاً في أرواحنا، لم نختبره، ولم نختبر شيئاً يشبهه يمكن لعقلنا أن يجعله معادلاً له.

وبالربط بين موضوعي تجريد التجربة، والصوت والدلالة، ندرك قيمة الموسيقى في الصوت، في قدرته على اختزال مشاعرنا ليس فقط فيما يخص تجاربنا الذاتية، لكن وعبر مفهوم الاختزال هذا فيما يخص التجربة الثقافية للغة ما، وعلى أساسنا هذا يمكننا أن ندرك أهمية استرجاع النطق والإلقاء كحالة مرافقة لأي نشاط لغوي (أدبي خصوصاً)، فهو عودة إلى الشعور الأول للحرف والكلمة والجملة، ليس باعتبارهم مجرّد رموز لما هو موجود في الواقع، بل باعتبارهم وهذا بالنسبة لي أهم من الواقع نفسه، تعبيراً عن تأثير الواقع على النفس البشرية، فالحرف المكتوب يمكن القول عنه أنه رمز، لكن الحرف المنطوق، والمقطع الصوتي المنطوق لا يمكننا إلا أن ندعوه فناً، فناً باعتباره الصرخة الخاصة التي أطلقها الأجداد للتعبير عن مشاعرهم، وما الفن غير ذلك؟

المؤثرات العربية – الإسلامية في شعر بوشكين

رضي السمّاك

يا نساء النبي الطاهرات .. أنتن عن كل نساء العالم مميزات
– *الكسندر بوشكين* –

(أهدي هذه المقالة الدراسية للصديقين العزيزين حسنين خلف ود. شبر الوداعي)

قبل عشر سنوات ونيف نشرت لي صحيفة «أخبار الخليج» بتاريخ 27 يونيو 2009 مقالاً مطولاً على حلقتين تحت عنوان «عميد الأدب الروسي بوشكين .. وتراثنا العربي» وأعاد نشر المقال موقع المنبر التقدمي الإليكتروني في التاريخ نفسه، وأجدني مدفوعاً مجدداً للكتابة عن هذا الشاعر الفذ الذي نُعت ب «أمير شعراء روسيا » وعشق تراثنا العربي الإسلامي عشقاً كبيراً، وقد احتفلت روسيا في يونيو الماضي بذكرى مرور 220 عاماً على ميلاده ، حيث وُلد في 6 يونيو من عام 1799، وجعلت من هذه المناسبة نفسها يوماً للغة الروسية لدوره التجديدي لهذه اللغة .. فما أحوجنا إلى استلهام روح التراث الأدبي والفكري الحي الذي لا يموت لهذا الشاعر المسيحي في تسامحه الإنساني الأممي ومحبته للأديان الاخرى، وفي مقدمتها ديننا الإسلامي الحنيف، ولا سيما في هذا الوقت الذي يطفح فيه على سطح الحياة السياسية والفكرية العالمية ضجيج الجدل واللغط الذي يعكس إشكالية الكراهية والتسامح، سواء عبر أصوات عربية نشاز تفتقر لـروح الإسلام الحقيقي في التعايش والتسامح مع أتباع الديانات الاخرى، وبخاصة المسيحية، وتوصم أتباعها بالكفر والصليبية، أم عبر أصوات غربية توصم من جهتها الإسلام بالتطرف جراء عمليات إجرامية ترتكبها جماعات إسلامية ارهابية.

وعلى كلا الجانبين فإن هذه الظاهرة الشاذة الطارئة التي لا تمثل قيم التسامح الإنساني لثقافات شعوبهما الدينية والفكرية إنما تستمد قوتها من ضجيجها الإعلامي وعملياتها الارهابية المتبادلة بين الجانبين والتي تزهق فيها ارواح الابرياء المدنيين، سواء تلك المرتكبة من قِبل الجماعات الإسلامية المسلحة، وعلى رأسها «داعش» ، أو ردود الفعل الغربية التأديبية التي تتخللها في غالب الأحيان طابع الارهاب الرسمي خارج القانون الدولي والتي ترتكبها الدول الغربية وتطاول المدنيين الأبرياء العُزل، وفي مقدمتها أمريكا، وذلك بغرض اتخاذها مبرراً لتنفيذ تدخلاتها في شؤون منطقتنا العربية والإسلامية لتنفيذ استراتيجيتها الكونية في الهيمنة تحقيقاً لمصالحها االإقتصادية الأنانية الضيقة.

الفقرة التي تتصدر هذه الدراسة مقتبسة من إحدى قصائده التسع التي كتبها عام 1824 وتحمل عنوان «قبسات من القرآن» والمخصصة لتمجيد روح وقيّم الإسلام السامية ورسولنا العربي الكريم (ص) والتي انبهر بها شاعرنا انبهاراً عظيماً، وقد كتب تلك الفقرة مستلهماً روح الآية الكريمة (53) من سورة الأحزاب. ومما جاء في قصيدة اخرى من القصائد التسع أيضاً:

أقسم بالشفع وبالوتر،
وأقسم بالسيف وبمعركة الحق،
وأقسم بالنجم الصباح،
وأقسم بصلاة العشاء،
لا، لم أودعك.

وهذه الفقرة أيضاً كتبها مستلهماً إيّاها من روح ومضامين الآيـات الثلاث الاولى من سورة الضحى: «والضحى إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى». ولما كان للقرآن الكريم مكانة محورية وجدانية – فكرية في التطور الروحي الذي مرّ به أمير شعراء روسيا فقد ترك تراثه الشعري الإسلامي تأثيره – بدرجات متفاوتة – في وجدان كبار الشعراء والادباء والمفكرين الروّاد الروس سواء ممن عاصروه من الشباب أم من الذين جاءوا بعد مصرعه الفاجع عام 1839، وانعكس هذا التأثير في العديد من مؤلفاتهم الأدبية التي تستلهم قيّم ومباديء الإسلام الإنسانية النبيلة وروح البطولة والتضحية والفداء في الدفاع الصادق عنها. وقد جاء صدى تأثر بوشكين بالقرآن الكريم ليس في قصائده التسع المشار إليها فحسب، بل وفي السنة النبوية الشريفة كما جاء في كتابه «أحاديث مأثورة» .

وقد إجتمعت عوامل وتأثيرات متشابكة انصهرت في وجدانه في بوتقة واحدة لتفسر لنا سر إنشداده لتراث الشرق العربي – الإسلامي ليخرج منه بتوليفة فريدة من نوعها تجمع بين أفضل الجوانب الإنسانية المضيئة في تراث شعبه في التوق للحرية والعدل والمساواة والمحبة بين أبناء البشر؛ ولعل أهمها وبين تراثنا الإسلامي، الأول: ويتمثل في أُصوله الحبشية الإسلامية وإطلاعه الجيّد على سيرة جده المسلم إبراهيم هانيبال الذي خطفه الأتراك وهو طفل ورحلّوه إلى اسطنبول، واشتراه السفير الروسي سافار راغونسكي الذي أهداه إلى القيصر بطرس الأكبر الذي أصبح أباه الروحي بعد أن تمّ تعميده وتربى وتعلم تحت رعايته.

وبفضل عبقريته ومواهبه استطاع أن يتأهل ليكون جنرالاً ومهندساً عسكرياً وينتسب إلى الجيش، وتزوج هانيبال وأنجب أوسيب هانيبال جد شاعرنا الذي ينتمي إلى طبقة النبلاء، وكان هذا الجد يقرأ القرآن سراً في بيته، أما العامل الثاني فيتمثل في تأثره بالحكايات الشعبية الروسية التي كانت تقصها عليه مربيته أرينا رودنيوفا المتحدرة من إحدى قرى بطرسبورغ، والعامل الثالث يتمثل فيما استفاد من توسيع ثقافته وتعميقها خلال فترة نفيه من قَبل القيصر إلى القفقاس والقرم حيث تعرف مباشرة على العادات والتقاليد الدينية في بعض المناطق الإسلامية، فضلاً عن استغلاله هذه الفترة لتكثيف انكبابه على قراءة التراثين الروسي والإسلامي وكذلك التراث الأدبي والفكري الغربيين وخاصة فرنسا وانجلترا. وكتب عدداً من أروع قصائده التي يظهر في بعضها تأثره بالشاعر ين الإنجليزي بايرون. وكان الشاعر تربى تربية ثقافية في بيت عائلة نبيلة تهتم بالأدب وتعلّم الفرنسية.

كما تأثر شاعرنا بالأثر التراثي العربي الكبير «ألف ليلة وليلة» والتي كانت حينذاك قد تُرجمت إلى الروسية. ولمحبته للعرب ظهر في حفلة تنكرية في زي عربي. وإلى كل ذلك فقد جمع بوشكين في تـوازن مدهش في أروع أعماله الشعرية بين الحُب العذري للمرأة بلغة رقيقة غاية في العذوبة والجمال مصوراً المرأة الروسية كأمرأة وفيّة عفيفة مخلصها لكنها كثيراً ما تقع ضحية لنزوات وإغواء الرجال في مجتمعها الذكوري، وبين روائع قصائده الثورية الوطنية الإنسانية الاحتجاجية. وكان في كلا الغرضين الشعريين متألقاً في تطوير لغته الشعرية بما لا يضاهيه أحد من نظرائه الشعراء والادباء في عصره.

والراجح في تقديري بأن رقة شعره العاطفي أسلوب تعامله الإنساني الجم، فضلاً عن انحداره من طبقة النبلاء وشهرته الأدبية المدوية كان كل ذلك وراء نجاحه من نيل قلب زوجته الفاتنة الجمال ناتاليا، ومن ثمَ تمكنه من الزواج منها على الرغم من أُصوله الافريقية التي منها اكتسب وراثياً شعره الأجعد، حتى أنه لقي مصرعه من أجلها كما سنبيّن لاحقاً.

كان بوشكين متمرداً على أوضاع الظلم والاستبداد وانعدام المساواة في مجتمعه ومن هنا جـاءت تعاظم نقمته ضد السلطة القيصرية وتأثره بحركة الديسمبريين الوطنية، ورغم مرارة تأثره لإجهاض انتفاضة ثوارها في

ديسمبر 1825 ظل متمسكاً بتفاؤله الثوري الشديد بإشراقة الفجر الجديد لروسيا وخلاص شعبها من النظام الدكتاتوري. يخاطب رفاقه في إحدى نصوصه النثرية: «أصدقائي، أنّى إليّ أن يهدأ بال وأرى الشعب مظلوماً مكبلاً بسلاسل العبودية .. وإني لأرى الفجر الجميل الرائع يلوح في الأفق مبشراً بوطن حر».

وفي مقطع من قصيدة اخرى يخاطب صديقاً له: «يا صديقي سنمنح أوطاننا مطامح أرواحنا الرائعة .. ثق أيها الرفيق أن نجمة السعادة الآسرة ستشرق حتماً، ستنهض روسيا من نومها، وعلى حطام السلطة المستبدة ستُكتب أسماؤنا». وكانت قصائده ضد حكم القيصر المطلق لاذعة بشدة وبالغة التأثير في نفوس الشباب وتأجيج حماستهم الثورية الاحتجاجية ضد النظام القائم، ومن هنا تولّدت كراهية القيصر الكسندر الأول الشديدة له، خصوصاً وقد فشل مسبقاً في استمالته بكل الاغراءات الممكنة ليكون شاعر البلاط، وقرر نفيه إلى سيبيريا ثم خُففت العقوبة تحت ضغوط ناعمة من أصدقاء مقربين من دوائر الحكم ليتم نفيه إلى كيشنيف في الجنوب.

وإذا صح المثل الشعبي «غلطة الشاطر بألف»، أو حسب المصطلح المستمد من الميثولوجيا الاغريقية «كعب أخيل» فإن القدر، أوعلى الادق انتقام القيصر المكتوم له، كان يخبىء له مصيراً مأساوياً أشدّ من منفى سيبيريا الرهيب الذي نجا منه، فزوجته الفائقة الجمال ناتاليا التي كانت محط أنظار حسّاده وحام حولها الذئاب والذباب من كل حدب وصوب، ومنهم على وجه الخصوص المهاجر الفرنسي الوسيم جورج دانتس الذي ضمّه القيصر إلى حرس الفرسان الخاص به، وبذل كل المحاولات لخطب ودها إلى ما هو أبعد من الصداقة العادية، فشكت الأمر إلى زوجها وبُذلت المحاولات لتسميم حياتهما الزواجية عبر سلاح الإشاعات المغرضة التي تمس شرفها فلم تفلح لثقة كليهما القوية في الآخر، واستمرت المكائد بما يفوق قوة حلمه واحتماله ورباطة جأشه، وفي مجتمع لا تسود فيه قوانين العدالة لأخذ حقه فما بالنا والخصم كان محتمياً بالقيصر، عقد العزم على مبارزته بالمسدس ثأراً لشرفه وشرف زوجته وهي – المبارزة – واحدة من التقاليد الطارئة على روسيا الشبيهة بجرائم الشرف في بعض الأقطار العربية، وخطط للأمر بأنه في حال نجاته ستكون أقصى عقوبة له النفي إلى ضيعته، لكنه جازف بحياته بهذا الرهان الخاسر فأُصيب بإصابة خطيرة قاتلة في معركة غير متكافئة خرق قواعد اللعبة فيها خصمه دانتس، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في يوم 6 فبراير 1937 بعد ثلاثة أيام من معاناته سكرات الموت.

ولم يبدِ دانتس أي أسف أو شعور بالندم لقتله أعظم شعراء روسيا، وكانت هذه النهاية سعيدة للقيصر خصم بوشكين الأكبر، لكنه جزع مسبقاً من ردود الفعل الشعبية العارمة المتوقعة، ففي يوم تناقل نبأ وفاته أهتزت الأوساط الأدبية والشعبية لهذا النبأ المفجع أيما اهتزاز وتأهبت للاحتجاجات العارمة، لكن القيصر اتخذ احتياطات أمنية قصوى مسبقة، إذ فرضت الشرطة على الفور الحصار الأمني المشدد حول منزل الشاعر الفقيد للحيلولة دون تحول تشييع جنازته تشييعاً جماهيرياً سياسياً ضخماً يليق بمقامه ومكانته، واشترطت بأن يكون تشييعها مقتصراً على بضعة أفراد من أقاربه وواحد من أصدقائه فقط.

لقد كان في روائع أعماله الأدبية – كما في سيرته الشخصية المثيرة التي انتهت بهذه النهاية التراجيدية الفاجعة عن عمر مبكر لا يتجاوز ال37 عاماً – مصدر إلهام لمختلف كبار الادباء من شعراء وروائيين ومفكرين وفنانين، فخُلدت أعماله في الفن السينمائي بعدد من الافلام التي تناولت سيرته، وكذلك الأمر في الفن المسرحي، ومازال تناول سيرته أو جوانب منها في كلا هذين الفنين تتوالى، كما ألهمت هيئته كبار الرسامين والنحاتين، وكانت أشهر اللوحات التي قيل أن بوشكين وقف أمام أصحابها ليرسموه للفنان أورست كيبرنسكي التي رسمها عام 1827 حيث يبدو فيها مُهيباً غارقاً في التفكير، كما ألهمت أعماله كبار الموسيقيين، ومنهم تشايكوفيسكي في أوبرا روايته «أوجين أو نيجين» وغيرها من الأوبريتات لمؤلفين موسيقيين آخرين، وإن كُنت لم أعثر بين المصار العربية العديدة التي تحت يدي ما يفيد بوجود أغاني شخصية من قصائده مما دعاني حول هذه النقطة تحديداً الإستعانة بالصديقين الملمين باللغة الروسية حسنين خلف ود. شبر الوداعي للتفتيش عما إذا توجد إشارة إليها في المصادر الروسية فوافياني مشكورين بكل المصادر الروسية بترجمة مقتضبة منهما والتي تثبت عدم وجود أعمال غنائية فردية في هذا المجال أو ندرتها في أحسن الاحتمالات. ويخامرني الشعور بأن الأمر يتعلق بأسباب فنية تتصل ببنية ومدى تناسب ايقاع قصائده وطولها مع الإيقاع الموسيقي مع المتطلبات التلحينية للغناء الفردي.

لكن بوشكين الذي أجمع على الإشادة بمكانته المتميزة في اللغة والأدب الروسيين كبار المثقفين من شتى التيارات الثقافية والسياسية، اللهم الاوساط الرجعية، ووُصف بأنه شاعر الأجيال المتعاقبة، ونعته الروس بأمير شعرائهم أو شاعرهم الأكبر ومؤسس أدبهم الحديث الذي كتب أول قصيدة وعمره لا يتجاوز الخامسة عشرة عاماً، ووُصف بانه شاعر كل الشعوب في كل العصور، وبأنه شاعر الأجيال المتعاقبة، وواحد من أعظم شعراء العالم تُرجمت قصائده إلى لغات عديدة .

بوشكين الأديب العالمي العظيم هذا مازال في تقديرى مستوى ترجمة أعماله إلى العربية دون المستوى المطلوب الذي يقارب قوة بلاغتها الفنية وسحرها اللغوي في لغتها الأصلية، على تفاوت مستويات المترجمين الذين ترجموها، إذا ما قورنت بالأعمال المترجمة على سبيل المثال بأديبين كبيرين عالميين كشكسبير وعمر الخيّام التي جذبت وألهمت مخيلة الكثير من الادباء والمثقفين العرب، وربما يعود ذلك إلى أن معظم المترجمين الذين ترجموا أعماله هم من محترفي ترجمة النصوص والمؤلفات السياسية، وبخاصة أن جلهم من اليسار العربي، فما زالت أعماله تنتظر مترجماً متعمقاً جداً في خواص وأسراراللغتين العربية الروسية وآدابهما وعاشق لهما.

وإذا كان يؤخذ على اليسار العربي عدم تسليطه الضوء الكافي على أعماله المتصلة بالتراث العربي الإسلامي، فلا عجب والحال كذلك إذا مازالت أعماله أو الكثير منها المختصة بهذا الجانب مغيّبة ومجهولة لدى غالبية المثقفين والأدبـاء العرب، دع عنك المحسوبين منهم على التيارات الإسلامية.

ترجمة أعمال بوشكين إلى اللغة العربية لا تزال دون المستوى المطلوب الذي يقارب قوة بلاغتها الفنية وسحرها اللغوي في لغتها الأصلية

على جناح متلازمة ستوكهولم المعاصر

زهراء المنصور

إلى من أحيت متلازمة ستوكهولهم مجدداً.. انفذي بجلدك.. الحياة قصيرة!

حينما قامت مجموعة من اللصوص بالسطو المسلح على بنك سويدي في سبعينات القرن الماضي، واحتجاز موظفيه رهائن لعدة أيام، لم يخطر في بال أحد أن تكون هذه الحادثة هي أساس نشأة ما أطلق عليها «متلازمة ستوكهولم» لاحقاً، حيث قام الرهائن بالدفاع عن خاطفيهم بعد إطلاق سراحهم! قد ندهش في المرة الأولى التي نقرأ/ نسمع عن هذه المتلازمة، التي تجعل من الضحية متعاطفاً مع الآسر، لدرجة الدفاع عنه، لأنها لا تتفق مع المنطق البديهي الذي يجمع أية علاقة طيبة بين طرفين كهذين. وما نعتقده في العموم ثوابت، قد تأتي مثل هذه حادثة ستوكهولم يشخص لها «نيلز بيجيروت»(1) الطبيب النفسي والباحث في علم الجريمة، الذي صاغ مصطلح المتلازمة، وتمّ تطبيقه على حالات متعددة توالت لاحقاً، حيث ثبت أن ما نسبته 8٪ من الرهائن في ستوكهولم –حسب ويكيبيديا– تحمل هذه المتلازمة التي تعرضهم لحدث مفاجئ وصادم؛ مثل الخطف، والاحتجاز لأغراض الرهن غالباً، وهو ما يعرض حياتهم للخطر والإنصياع لأوامر المجرم، في الوقت الذي سيمضي بهما معاً، حتى فيما يتعلق في أدق التفاصيل الإنسانية البسيطة. هذه الفترة ستكون الخيط الذي سيربطهما: الجاني بوصفه المستفيد لغرض معين ومحـدد، والمـجـنـي عليهم حين تتحول العلاقة – بغير إدراك – إلى مشاعر حية وإيجابية وتعاطف، لأن الجاني لم يقصد المجني عليهم تحديداً في الغالب، ولذا فهم ليسوا المعنيين بالحادث، وإنما هي المصادفة التي قادتهم جميعاً إلى هذا المصير. يبدأ الحدث المفاجئ بخوف، ويسترخي رويداً رويداً حتى يأخذ وضع الاطمئنان والحماس الذي يدفع بالأسرى إلى التخطيط مع الجاني/ الآسر نحو حبكة مثالية أكثر يظهر بها أمام العلن!

قُدمت هذه الصيغة في الدراما بأشكال مختلفة تصب في نفس المحتوى. وقد تأتي في هذا رواية الأديب المصري إحسان عبدالقدوس «في بيتنا رجل»، التي تحولت إلى فيلم سينمائي في عام 1961، أي قبل صياغة مصطلح «متلازمة ستوكهولم» بأكثر من عقد، حتى إن كان السياق مختلفاً نوعاً ما، ويحمل في طيه عاطفة ولدت بظروفها لـ«نوال زاهر» (زبيدة ثروت)، البنت التي تربت في بيت تقليدي يحدد حركة الإناث داخل وخارج البيت، تجاه بطل الحدث الرئيسي «إبراهيم حمدي» (عمر الشريف)، المناضل السياسي، الهارب من السجن لتورطه في اغتيال شخصية سياسية موالية للإنجليز، ثم «اختباؤه» في بيت زميل الجامعة «محيي زاهر» (حسن يوسف) الذي لا يُعرف له نشاط سياسي من قريب أو من بعيد. هذا الاختباء، الذي فُرض على هذه الأسرة التقليدية البحتة، والوادعة أيضاً، لم يكن إلا صورة من صور الخطف الذي يحدد من حركة المخطوفين في بيتهم! ورغم أنها تبدو صورة سلبية لمجرى الحدث، لكن من المدهش هو الحماس الذي أبداه أفراد الأسرة لاحقاً، في الحدث المثير

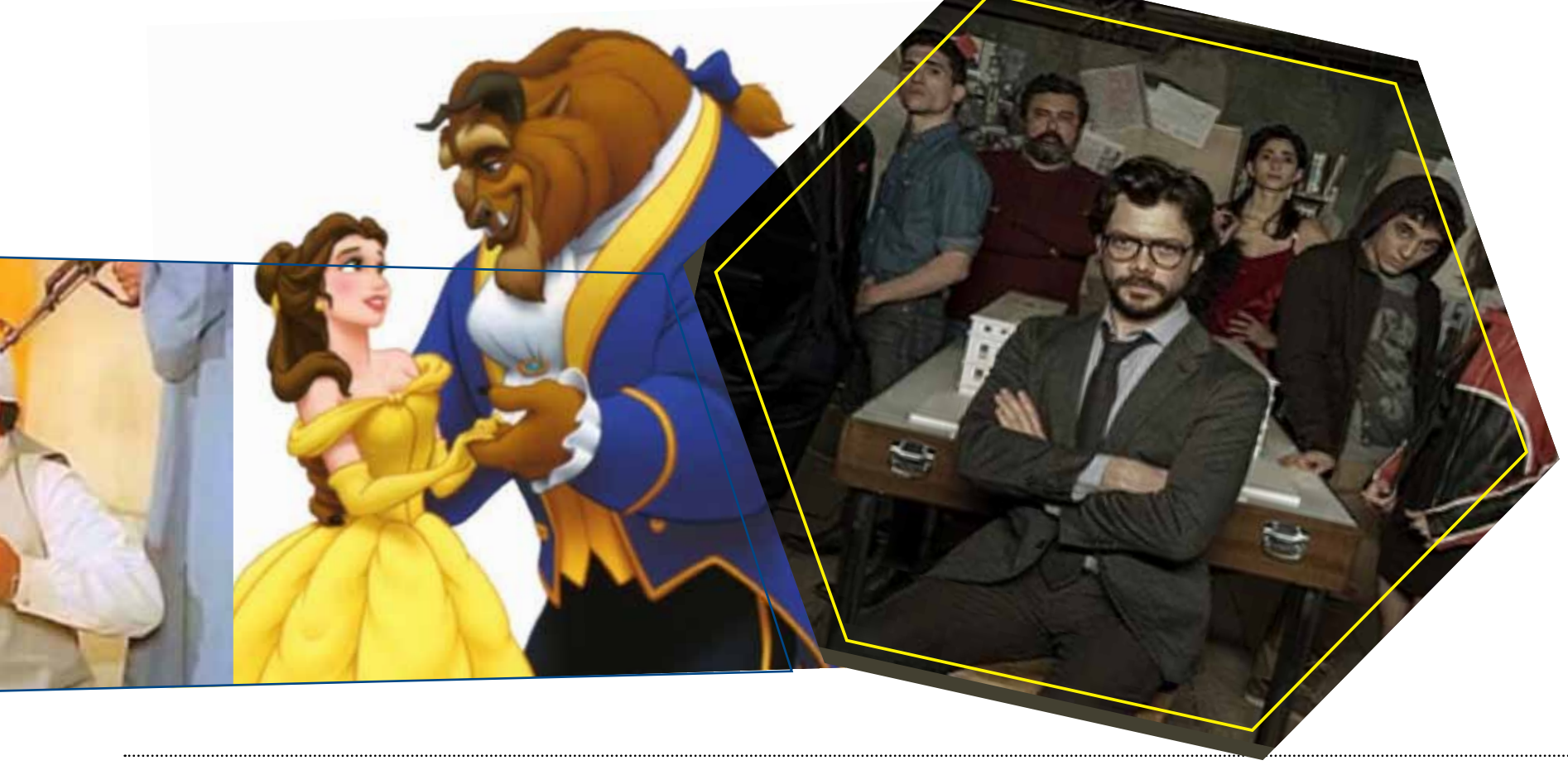

الذي دخل حياتهم مصادفة، لكنه أنتج تغييراً مثمراً سريعاً، آنياً وبعيد المدى في نفس الوقت. ما يمكن الإشارة إليه في هذه الحادثة الصادمة لأهل البيت المسالمين تماماً، والمتهيئين لتناول وجبة الإفطار في شهر رمضان، وقت دخول إبراهيم حمدي عليهم، هو الوقت الذي غيّر مصير حيوات أفراد هذه الأسرة جميعاً، التي تشير إحدى الفرضيات إلى أن التضامن مع المعتدي هي إحدى طرق الدفاع عن الـذات، ومتلازمة ستوكهولم قد عصفت بـ»نوال»، وبادلها العاطفة «حمدي» في تلك الظروف غير المهيئة لولادة أية عاطفة، إلا الخوف على الحياة والمصير.

نفس الثيمة جاءت في فيلم «الإرهاب والكباب»، المنتج في 1992، للثنائي المميز تأليفاً وإخراجاً؛ وحيد حامد وشريف عرفة، حيث البطل «أحمد» (عادل امام) الذي تسوقه الصدف إلى مجمع التحرير لنقل ابنه إلى مدرسة أخرى، فيصطدم بالبيروقراطية التي تدفعه بالصدفة إلى احتلال المجمع، واحتجاز الرهائن من الموظفين والمراجعين، الذين توافرت فيهم كل الأعراض والسلوكيات التي شخّصها المعنيون للمتلازمة في مرحلة ما بعد الصدمة، والخـوف، وطول المدة، التي تكشف لهم قصدية الآسر «أحمد» باسمه الأول/ العادي/ المألوف، الذي يسمي به ملايين المسلمين حول العالم، والمواطن التقليدي، إلى حد المشي حسب المطلوب منه تماماً، كما أسرة «زاهر» عند إحسان عبدالقدوس، والمتحول الذي تفاجأ – كما الآخرين – بنفسه، آسراً محتجزين في أكبر مقر حكومي. الاحتكاك بين الطرفين، لاحقاً، يولد مشاعر إيجابية، ليقينهم أن «أحمد» هو أحدهم بشكل ما، ومشاعر أخرى سلبية أتت لاحقاً لرجال الأمن والشرطة، ممن سعوا إلى تحريرهم من قبضة الاحتجاز، مع كامل الدعم والمساعدة للجاني حتى

النهاية. وكذلك في المسلسل الإسباني المنتج قبل سنتين «Money heist"، حيث يقوم البطل باقتحام دار صك العملة من أجل طباعة مليارات يحتاج فيها لأيام عمل، ويتفاوض مع الشرطة من أجل الرهائن. المفارقة أن تكون الشرطية هي "الستوكهولمية" هنا! هل اقتصر تجسيد المتلازمة على الأعمال المصنفة للكبار فقط؟ على الإطلاق؛ فشركة والت ديزني، التي أنتجت كل أفلام الرسوم المتحركة الناجحة، قد صنعت فيلم "الجميلة والوحش" المعروف، والذي أشارت إليه أكثر من مادة مكتوبة بـ"ستوكهولم"، الجميلة الأسيرة التي ترجع لمخدع الوحش، والخوف الذي تحول إلى أمان! والمشاهد سيتعاطف مع كل "الجناة" الذين ذكروا في الأمثلة السابقة، باعتبارهم أبطالاً نبلاء على نحو ما، ولهم دوافعهم التي تدفع المشاهد إلى التعاطف الضمني معهم.

وحتى لو بالغت الدراما في صنع أحداث مكتوبة، فإن هذه الأحداث لابد لها من وحي حياتي موجود ينسج المؤلفون منها حكاياتهم؛ أن تصنع الضحية قفصاً وهمياً من فولاذ حتى لا تتحرر من آسرها، وفي وعيها الحاضر أنه تسبب في أذاها، لكنها ولسبب ما ترفض الخلاص، بل وتساعده في الاستمرار، مثل الفتاة التي احتجزت لمدة ثمانية أعوام وأطلق سراحها بشكل ما، ثم أجهشت بالبكاء، وأوقدت شمعة لروح آسرها بعد علمها بوفاته! وليس بالضرورة أن تكون الضحية أنثى، برغم الاتفاق الجمعي أنها الأضعف مجتمعياً، بالإضافة إلى السلوك العاطفي العام الذي يجعلها أكثر عرضة لأن تكون ضحية ستوكهولم. لكن، بما أنه لا توجد إحصاءات ترصد جذر الضحايا بلغة علمية موثوقة، فلا يمكن الاتكال على تصور مجرد، لا يعود لجنس الضحية، بقدر ما يعتمد على ماضيه، وتجاربه، ومكوناته العقلية التي تحكم التجربة بالنضج من عدمه.

وكما تحيك الدراما أحداثها من الفعل اليومي الحياتي، باعتباره الأسبق، تصدر الدراما لنا صوراً مؤثرة تقبع في خيالنا، وتحوله مع الوقت إلى أفعال وسلوك قد تؤثر على العاطفيين، أو محدودي الوعي، في انتخاب أفعال لا تتناسب ومكوناتهم الحياتية الأخـرى، كالخلط غير المقصود بين الاستسلام للسيطرة، والرومانسية، في العلاقات العاطفية، أو تحويل الكلمات الخارجة إلى حوار يومي مألوف معزز برضا الآسر/ المسيطر، والإصرار الكبير على عدم التحرر، بزعم إحدى المسوغات التي تسوقها الدراما، والتي يؤثر التعرض المستمر لها على سلوكيات المجتمع حتماً.

كما أنه ليس من الوارد أن يكون خطف أو رهينة بالشكل المعروف، بل من الممكن جداً أن يأتي على هيئة علاقة زوجية، أو حب، أو حتى صداقة. ولأنه لا يوجد معيار متفق عليه لتشخيص المصاب بهذه المتلازمة، لكن معظم ما رصد من حالات كان لهم تجارب سيئة متعلقة بالاضطهاد: اضطهادهم لأنفسهم قبل أن يفعل هذا آخرون، عدم التصالح مع النفس وتقبلها، أو أخطاء الماضي، أو تجارب سيئة تظل عالقة في الذاكرة لا يغفرها الفرد لنفسه أو لغيره، وأيضاً الخلاص الذي يعتقده في وجود "ستوكهولم" خاص به، طرف آخر يتحكم به، ويخيل إليه أنه ينتشله مما كان فيه، أو بما يوحي للآخرين المذهولين أن يرى ما لا يروه، دون خوض في التفاصيل، التي لن تبدو مبررة ومنطقية بالنسبة للآخرين. فتبدو لاحقاً كحالات التغييب العقلي التي يتحول فيها الفرد عن قناعاته ونمط تفكيره إلى مسار آخر لا يشبه نسخته القديمة، فتكون العزلة والمقاومة عن كل يد تمتد لانتشاله أو تحاول مساعدته، في مقابل دفاع عن الجاني في شكل عاطفة وشفقة.

ولن يأتي العلاج بالطبع على هيئة مقبولة، لأن الضحايا سيقاومون أية طريقة/ فرد يفكر بانتشالهم مما هم فيه، ذلك أنهم اعتادوا الدفاع عن الآسر، لإرضائه باعتباره منحهم حياة جديدة أو شعوراً جديداً لم يختبروه قبلاً. لذلك يتطلب الموضوع مجهوداً خارقاً لتغيير قناعة الضحية بأن الشخص الـذي يثق به هو – ببساطة – غير مؤتمن. وقد يخيب التشخيص الذي يرى الحل الجذري في جلسات نفسية مكثفة، لو تركت الضحية مسافة أمان كافية تستطيع فيها أن ترى بوضوح ورويّة ما غاب عن ميزان العقل والمنطق، وتسلسل الأحداث، وأيضاً المصادفة الكونية التي وضعتها في وضع عابث لن يعتدل إلا إذا قررت هي ذلك.

كل هذا النجاة

قصة قصيرة
كولاله نوري

تدقق في قائمة أرقام الهواتف، المدونة بدفتر ملاحظات قديم، تقلب الصفحات .. في كل صفحة تكون قد حذفت أكثر من نصف الأسماء .. منهم من توفي بمرض عضال اثناء الحصار الاقتصادي، لعدم توفر الدواء. ومنهم من هاجر، ومات بسكتة قلبية من الوحدة والقهر. ومنهم من اختفى، حسب، هكذا دون ان يظهر أبداً بعد دخوله السجن. لكنها في النهاية، قررت أن ترسم خطاً خفيفا على رقم هاتفه، دلالة على ضبابية المصير. وآخرون ماتوا جملة مع تفاصيلهم الكثيرة، فرسمت دوائر تضمّهم– دوائر كثيرة.. إلى أن تتناثر الاحرف، بين انحناءات الدوائر المتكررة، علّها تنجح في مسحهم من الذاكرة، أو في مسح من سقطوا دفعة واحدة، في انفجار ليلة العيد، حيث تجمعوا في مقهى .. وهكذا، توالت دفعات الموت الغريبة، والسريعة، وغير المنتظرة، إلى أن أصبح نجاتها هو سؤالها، ليس معنى توديعها لكل الاشخاص في حياتها.. إنما بدأت تبحث عن جدوى البقاء، دون أن يكون لديها الرغبة، لتشارك نجاتها مع غرباء لا يعرفون من سيرتها سوى رقم عمر ها في البطاقة، وربما رقم بيتها أو لون سيارتها..

تفكر: أنا الآن، رقم لمشروع مواطن متأخر في بلاد غريبة، ولشارع، ولبطاقة تامين، وغير ذلك، فقد ذهب كلي مع أصحاب الأرقام الملغاة تلك التي في دفتري القديم.. على سبيل الكذب على النفس (التي لن تصدقه أبداً) تطلب رقما بعد الاخر .. منه ما أصبح خارج الخدمة، وآخر غير صحيح، أو خارج التغطية .. تمارس هذه اللعبة بين فترة وأخرى ..لتجد معنى لبقائها وحدها، لكن لا شيء سوى الفراغ الهائل. كيف يمكن أن تشعر بكونٍ من الفراغ، وتملك المجد، ومساحات الحرية والحلمً والجمال.

ولا تترك حفلة قريبة إلا وتصرخ فيها بلا هدف. تتأنق، وكأنها تأخذ دورها في فيلم مهم، عند كل مناسبة في المدينة. تزرع كل أركان بيتها نباتات كي تأخذ الكثير من ماء وقتها وروحها .. ترتب كل يوم غرف البيت، وكان عقمها قد أنجب دزينة اطفال، دزينة اشباح.. تشارك بمسابقات تافهة لأسئلة تافهة، هربا من أسئلة الموت والحياة. تخطىء فيها دائماً. وتتصل ببرامج أتفه منها، لتناقش.. ماذا تفعل المرأة حين ينظر حبيبها لامرأة اخرى بالصدقة ...؟ تضحك على نكات بسيطة، تقهقه وحدها.. تبكي كثيرا على بطلة مسلسل تلفزيوني من مئة حلقة، التي لم تر حبيبها منذ سنتين،.. تملأ كل اماكنها واوقاتها ومفاصلها، وحواس الشعور، كي لا تفكر بأصحاب الإرقام المشطوبة.. ولكن دون جدوى .. تكتب رقما في الدفتر، وتجرّ خطًا عليه .. وعلى صوت طلقة رصاص تتصل بالرقم الجديد، لتجده مشغولاً، تتصل مرة ثانية، تبتسم وهي تحاول أن تتحسس الدماء الحارة في صدرها، لأنها اخيراً، أصبحت غير متاحة، فقد إمتلا فراغها بموت لا افتراضي، موتها الملموس بحجم كل أصحابها الأموات، موت بمساحة الكون.

* شاعرة وكاتبة عراقية تقيم في امريكا

نيرودا وماركيز: قصة كفاح

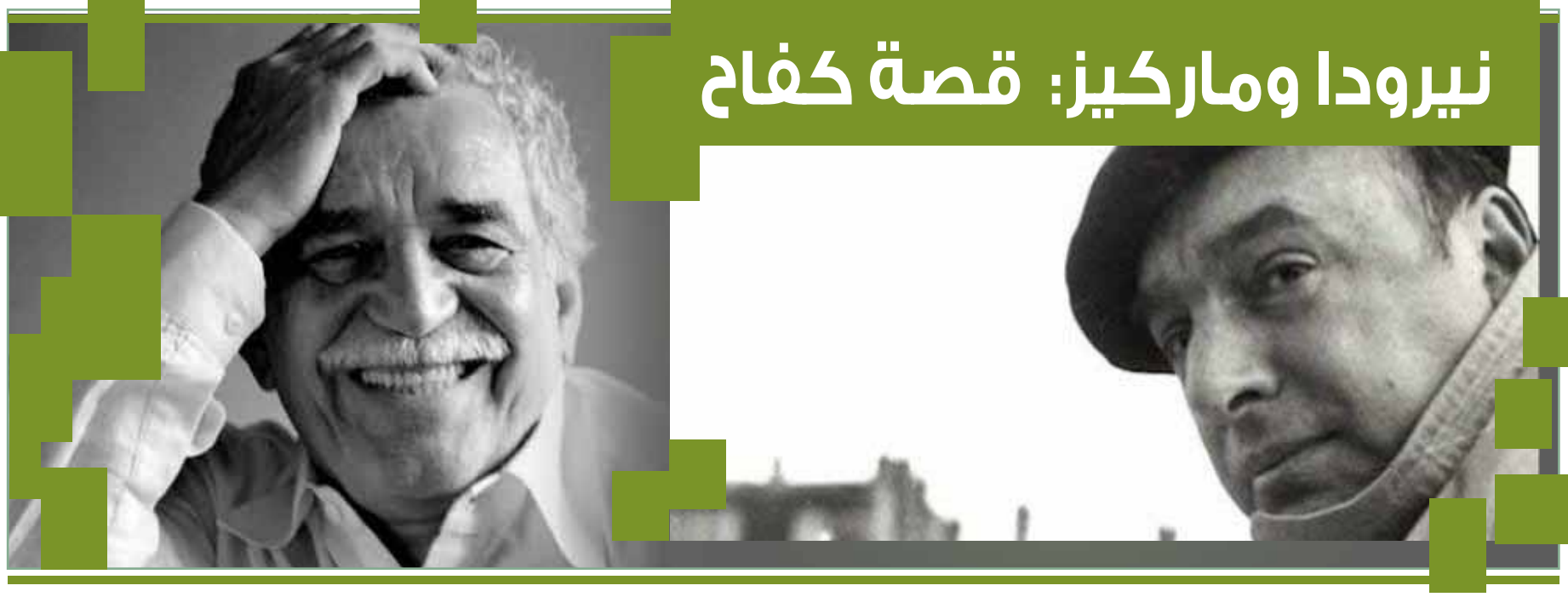

كانت ذكريات مهرجان الشبيبة والطلبة المنعقد في كوبا في العام ١٩٧٨، ذلك المهرجان الذي ينظمه اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي غافية. كان وفد البحرين كبيرا نوعاً ما حيث توزع الوفد بين ممثلي طلبة البحرين الدارسين في الخارج الآتين من القاهرة، موسكو ومن أماكن اخرى، وبين رفاق آتين من الداخل خصيصا لحضورهذا المهرجان ، حل علينا آنذاك قائد الثورة الكوبية الرئيس فيدل كاسترو في احدى القاعات الضخمة بقامته الفارعة وبلباسه العسكري، حيا الجموع المكتظة، وكان لوقع كلمته المرتجلة صدى في الجموع المحتشدة.

حميد الملا

أذكر حينها بأن مرسيل خليفة الفنان اللبناني كان حاضرا وغنى أغنية مهداة لكوبا تبدأ كلماتها التي كتبها الشاعر الفلسطيني الراحل توفيق زياد (يا رفاقي في كوبا الأبية عندي لكم من بلدي تحية). كان مهرجانا ناجحا بكل المقاييس وأصبحت هافانا قبلة لكل وفود العالم، وبعد عشرين عاما عدت لزيارة كوبا في العام 1998 فوجدت بأن الحصار الاقتصادي قد لعب دورا كبيرا في تهالك البنية التحتية لهذا البلد الجميل بناسه الطيبين وببحره الهادئ والمكفهر احيانا.

تلك الذكريات الغافية استيقظت من خلال كتابين انهيت قراءتهما مؤخراً حاولت بهما ان أعيد في ذاكرتي ترميم ما كانت عليه بعد تلك القراءات، الأول لجابرييل غارسيا ماركيز (نعيشها لنرويها) والثاني مذكرات بابلو نيرودا (أعترف بأنني قد عشت). كلا الكتابين عبارة عن مذكرات لهذين العظيمين يوجزان فيهما الحياة التى عاشوها ويعيدان خلق ذلك الزمن المفصلي الجميل في حياتهما كمناضلين جسورين. كلا الأديبين تجمعهما وتشكل ملامح أدبهما قضية واحدة هي الدفاع عن الشعوب المضطهدة ومواقفهما النبيلة من القضايا العادلة لمختلف الشعوب ودفاعهما المستميت في سبيل عالم أكثر عدلا ووقوفهما مع الطبقات الأكثر فقراً، إنهما فارسان من أمريكا اللاتينية كلاهما التقيا بفيدل كاسترو كل بطريقته الخاصة.

غابريل غارسيا ماركيز روائي وصحفي وأديب كولومبي ولد في العام 1927 وتوفى في العام 2014، كتب العديد من الروايات منها (مائة عام من العزلة) و(الحب في زمن الكوليرا) و(ليس لدي الكولونيل من يكاتبه) و(وقائع موت معلن) و(ذاكرة غانياتي الحزينات) و(في ساعة نحس) و(أوراق ذابلة) وأعمالاً اخرى عديدة، ومن خلال هذه الأعمال حصل على جائزة نوبل للآداب في العام 1982.

يسرد لنا ماركيز السنوات الأولى للطفولة والشباب والعمل والجهد والنجاحات والإخفاقات والتجارب التي مر بها ولقاءاته وأسفاره وكل ما يحيط به وبعائلته والأساس الذي بنيت عليه قصصه ورواياته.

المميز والجذاب فى هذين الكتابين هو كيفية وصولهما الى المجد الذي غطى مسيرتهما الطويلة رغم اختلاف توجهاتهما الأدبية فالأول روائي والثاني شاعر وسياسي لا يشق له غبار.

بابلو نيرودا من تشيلي مواليد 1904 توفى في العام1973 اثرالانقلاب الذي قام به بينوشيه وأطاح بحكومة الرئيس سلفادور الليندي الاشتراكية، وهو من أبرز الشعراء في العالم له عدة دواوين كـ (الشرقيات) و(عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة) و(النشيد العام) و(ذكرى الجزيرة السوداء) و(حامل المقلاع المتحمس) و(إقامة في الأرض) و(اسبانيا في القلب) و(مرتفعات ماكتشو ...بيكتشو) و(إقامة ثالثة) و(إشعارالقبطان) و(اناشيد بدائية) و(الأعشاب والريح) و(مائة أرجوزة غزلية) و(أغنية مفخرة) ودواوين اخرى. وعن كل هذه المساهمات والأعمال استحق عن جداره جائزة نوبل للآداب في العام 1971.

أصبح نيرودا قنصلا وسفيرا لبلاده في العديد من البلدان من سيلان الى إندونيسيا الى سينغافورة، المكسيك الى بوينس آيرس الى اسبانيا ومن ثم باريس وكان عضوا في مجلس الشيوخ في الأربعينات من القرن الماضي قبل أن يعزل ويطارد ليختفي عن الأنظار ويفر هاربا عبر الجبال.

حمل بابلوا نيرودا شعلة النضال في كل البلدان التى حلّ عليها خلال تلك التنقلات العديدة وحمل قضية شعبه وحزبه ألحزب الشيوعي التشيلي أينما ارتحل، وقد حصل على العديد من الجوائز من مختلف البلدان، إضافة لمنحه دكتورة شرف من جامعة اكسفورد.

يقرر في مذكراته: "قد وجدت في حزبي، الحزب الشيوعي التشيلي، مجموعة من أناس متواضعين كانوا قد نحوا جانبا الغرور الشخصي، حب الزعامة، المصالح المادية. شعرت بأني سعيد في معرفة أناس متواضعين يناضلون في سبيل التواضع العام، أي في سبيل العدالة. وعنه يقول غابريل ماركيز (بابلوا نيرودا من أفضل شعراء القرن العشرين في جميع لغات العالم). وقبل أن يموت وعند انقضاض العسكر على الحكم وقتل سلفادور الليندي الرئيس الاشتراكي المنتخب قال كلمته المعبرة (لقد عادوا ليخونوا تشيلي مرة اخرى).

ومن خلال هذا المشوار الطويل الحافل بالأحداث لا نبالغ إذا قلنا بأن نيرودا وماركيز كانا من أبرز الشخصيات الفاعلة في تاريخ امريكا اللاتينية خلال القرن العشرين، هما عصارة وروح الحقبة الثورية والتحررية ومبدعاها بلا منازع.

علي البزّاز: العقول المنفتحة على الحوار والمعرفة هي التي تنير الطريق لأجيالنا القادمة

«مشق للفنون» يحتفل بمرور ٤ سنوات على تأسيسه

«فضاء مشق للفنون» الذي أسسه ويديره رسّام الكاريكاتير المتميز والفنان المثابر علي البزّاز هو أحد المشاريع المهة في البحرين التي تستحق منا كل الدعم والمساندة. لم يراهن البزّاز وهو يخوض مغامرته بافتتاح «مشق» في واحدة من أكثر المناطق في البحرين كثافة بالسكان، سوى على الثقافة والفن. وهو، رغم كل الصعوبات المالية والمحبطات، نجح في كسب هذا الرهان، ونجح «مشق» في استقطاب قطاعات من المتعشطين للثقافة والفنون والشغوفين بهما، لم تستطع المؤسسات الثقافية الأخرى الوصول إليها، ونجح في إقامة مزاوجة ذكيّة بين الأدب والفنون بشتى فروعها، وتحوّل «مشق» إلى مقصد للأدباء والفنانين والمثقفين والمهتمين بها.

على صواب كان علي البزّاز و«مشق» في الرهان على الثقافة والفن. ما من عاصم من التراجعات المحيطة بنا سواء على الصعيد المحلي أو على الصعيد العربي العام سوى الثقافة، بتجلياتها المختلفة، في منع استمرار التردي، وفي النهوض بقوة من جديد، عبر إشاعة مناخات التسامح والتنوير والتقدّم، ونبذ كل ما له علاقة بالكراهية والبغضاء ومناخات الاحتقان. تجربة كل الأمم والدول تؤكد أن التعويل على دور الثقافة في تطوير الذائقة وفي التنشئة السوية هو الخيار الصحيح ، وتجربة «مشق» أكدّت هذا بكل جلاء.

و«مشق» في تأسيسه وفي رسالته استلهم من تاريخ الحركة الثقافية والإبداعية في البحرين أحد أهم دروسها، وهو الحرص على استقلالية الفضاء الثقافي عن أي وصاية. فتاريخنا الثقافي شاهد على أن المبادرات الثقافية الجادة والرصينة والتي أدت دوراً تأسيسيًا وريادياً في النهضة الثقافية إنما انطلقت بمبادرات أهلية. أي أنها نبعت من المجتمع نفسه وعبرت عن وجدانه. يصحّ ذلك على تأسيس المسارح الأهلية وأسرة الأدباء والكتاب وغيرها من المؤسسات والمبادرات الثقافية والفنية.

على هذه الخطى سار «مشق»، فهو انطلق من مبادرة تعبر عن حاجة ملموسة في البلاد وفي المنطقة التي يقع فيها لمؤسسة ثقافية وفنية من هذا النوع، تُشكل من جهة امتداداً لتراث المؤسسات الثقافية الأهلية من جهة، ومن جهة أخرى تشكل إضافة وتطويراً، حيث أخذ «مشق» طابعاً خاصاً به، أضاف عليه وعلى دوره نكهة جعلته قريبًا إلى الناس.

هذا القول عن استقلالية المؤسسات الثقافية لا يعفي، بالطبع، الدولة من مسؤولياتها تجاه دعم النشاط الثقافي والفني الأهلي وتوفير سبل ديمومته، فذلك داخل في صلب واجباتها في تحقيق التنمية الثقافية، التي لا تستقيم بدون هذا الدعم للمبادرات الأهلية و«مشق» أحدها.

استقطب «مشق» المواهب الشابة وأصبح حاضناً لأنشطتهم وفعالياتهم في مختلف مجالات الإبداع والفنون

ويسجل ل»مشق» أيضًا نجاحه في استقطاب المواهب الشابة في مختلف المجالات، حيث جعل من مكانه حاضنًا لأنشطتهم وفعالياتهم، ولطالما انتظمت المجموعات الشبابية المهتمة بالقراءة في جلسات فيه، وينسجم هذا الدور مع تعويل المؤمنين بالثقافة ودورها على أبناء وبنات الجيل الجديد الموهوبين، خاصة بعد تراجع دور المؤسسات الثقافية، واضطرار بعضها للإغلاق كما حدث مع «رواق الفنون» بالعاصمة المنامة.

٤ سنوات على التأسيس

مساء الثلاثاء، السابع والعشرون من أغسطس / آب الماضي احتفل «مشق» بمرور أربع سنوات على افتتاحه، في حفل حاشد وبهيج، حضره عدد كبير من محبي الثقافة والفن، كما حضره ممثلون عن المراكز الثقافية الأجنبية في البحرين، قدّمت فيه عدة فقرات، وأدارته باقتدار الشابة سوسن فريدون، وتنوّعت الفقرات بين كلمات ألقتها وجوه ثقافية وابداعية معروفة في البحرين، وفقرات فنية.

افتتح الحفل بكلمة الشاعر الكبير قاسم حداد، وتلاه الدكتور حسن مدن والدكتور نـادر كاظم والأستاذة هناء بوحجي وأخـيراً الشابة جمانة القصاب، وتخللت الكلمات وصلات موسيقية وغنائية للفنانين أحمد الغانم وعبدالرحمن البحرين وعلي عبدالرزاق وحسن الحداد، أضافة إلى معرض للفن التشكيلي شارك فيه عدد كبير من الفنانين بينهم محمد المهدي، حسن الساري، جيهان صالح، ناجي سوار، يسرى أحمد، زينب درويش، أيمن حاجي، علي ميرزا، ومحمود حيدر على مشاركتهم بأعمالهم الرائعة التي تزين جدار فضاءنا.

والقى مؤسس «فضاء مشق للفنون» الفنان علي البزّاز كلمة معبرة إستهلها بالقول: «لم يكن سهلا أن أقف أمامكم اليوم، لانه لم يكن سهلا ان نعبر هذه السنوات الأربع الماضية. كان الحلم هو ما يقودنا، والشغف هو ما يدفعنا للأمام، والإرادة هي ما نتسلح به، ودعم من حولنا وإيمانهم بتجربتنا هو ما يسندنا.

وأضاف مؤسس «مشق»: «بدأنا والمجال الفني والثقافي يشهد تراجعاً، وضعفاً، وعدم وضوح رؤية، ونقص في الأمكانات والطاقات، لأن اهتمام الكل كان منصباً في أماكن أخرى، وانشغالهم بما هو في رأيهم أهم. يُضاف إلى هذا قدر محدود من الإمكانات والخبرة التي كنا نمتلكها. بدأنا وأمامنا الكثير مما نواجهه من تحديات، وبما نطمح إليه من أحلام وغايات.

لم تكن هذه السنوات الأربع سهلة كما أسلفت، لكنها كانت غنية جداً بما أعطته لنا، وقدمته، من فرص، وخبرة، وعلاقات، واكتشاف لإمكاناتنا وإمكانات تزخر بها بلدنا. وبما عززته لدينا من قناعة بأهمية تعزيز حضور الفكر والثقافة والفن والحوار الحر وتمكينها في مجتمعاتنا، وبأن جزءاً أساسياً من مفاتيح مانمرّ به من أوضاع متراجعة يكمن في دعم هذه القطاعات والممارسات.

وأكدّت الكلمة على «أن عقولاً منفتحة أمام المعرفة، وأمام الحوار، وأمام الفكر الآخر، وأمام الأصوات التي تصدح من كل بقاع العالم فلسفةً وأدباً واجتماعاً ونقداً وفناً وموسيقى وغيرها، لهي العقول التي ستنير طريق المستقبل لأجيالنا ولأوطاننا. وإن فضاءات مفتوحة هي ما تحتاجه هذه العقول لتقول ما يجب أن يقال، وليكون لها مؤطأ قدم، وفاعلية في مجتمعاتها وبلدانها والعالم.

واختتم البزّاز كلمته بالقول: «نحن وبعد أربعة أعوام، نقول إننا سنكمل ما نقوم به، لأننا مؤمنون به، وشغوفون، وعاشقون، لكل الجمال الذي يحتضنه هذا الفضاء، لكل كلمة قد تخلق تغييراً ولو في عقل شاب صغير، لكل ضربة لون تساهم في تبديد العتمة الذي تغطي عالمنا، لكل نغمة تجعل البشر ينفضون عنهم اليأس والحزن ويرقصون فرحاً وبهجة».

قصائد هايكو

أبعد من الغيوم

هدى حاجّي

١
على أصابعي
شذا اللّيمون
سلام حتى مطلع الفجر

٢
على الرّمل القائظ
يحفر المطر
مثواه

٣
على شجرة العُلّيق
جَلَابِيبُ الفلاحات
تتجاذب أطراف الرّيح

٤
تحت ظلال الأقحوان
و لا يقلعُ قبّعته
فطرٌ برّيّ

٥
ثلاثُ ورقات
ينتظرن الخريف
تحت شجرة التُّوتِ

٦
هل تتواعد على اللّقاء
في المغاور السحيقة
قطرات مطر

٧
أوراق نعناع
تَتَعَرَّقُ في الشّاي
أريج البراري

٨
موجة ثائرة ـ
أودّ أن أصرخ
في وجه العالم

٩
من فرط أمومتها للطير
تنزّ بالحليب
شجرة تين

١٠
بوخزة دامية
تعلّمني الوردة
كيف أحبّها

١١
كأنّه سقسق
على شجرة الليمون
قمر آذار

١٢
أيّها اللّيل
وأنت تمحو هذا العالم
لا تنس الحزن

١٣
نافذة مفتوحة
تأخذني أبعد من الغيوم
ورقة بيضاء

١٤
لذيذة و حامضة
مثل حياتي
أحزازُ برتقالةٍ

١٥
في المتحف
غزالة محنّطة
مازالت تعدو

١٦
بالكاد يكتمل
قمر الليلة
وحدك تكمل نقصاني

١٧
أُصَوِّب
بتلاتَ الأوليفيرا
للعيون الوقحة

واحة الفكر

ابن خلدون، سميث .. وربما ماركس!

هشام عقيل

يقول الاقتصاد البورجوازي بإن نظرية القيمة هي مطلقة؛ وإنها، فوق كل هذا، مقولة أبدية. ما دام هناك إنتاج سلعي ذلك لن يعني سوى أن مقولة القيمة لا بد أن تحضر ايضاً، لا بد أن تلعب دوراً محركاً. أيمكن أن نعتبر هذه الفكرة صحيحة؟ أبداً. بلا شك، قد تظهر القيمة في مجتمعات سابقة للرأسمالية، ولكنها ليست القيمة بالمعنى الرأسمالي للكلمة. هذه الإضافة جد مهمة، ومن دونها سنقع في مختلف التحريفات النظرية؛ التي غالباً ما نقع فيها بفعل غياب الدقة اللغوية من الممارسة النظرية.

قال ستالين في كراسه (القضايا الاقتصادية للاشتراكية في الإتحاد السوفيتي) بأن قانون القيمة موجود بوجود الإنتاج السلعي؛ إن هذا الإدعاء صحيح وخاطئ في نفس الوقت. صحيح، لأنه ما دام هناك إنتاج سلعي فإن ذلك لا أن يتضمن القيمة وقيمة العمل (وسيبقى هذا القانون مستمراً في الاشتراكية أيضاً؛ كالدولة، كالعملة، كالأموال، إلخ — إلى حد إنقراضه). خاطئ، لأن هناك فرقاً شاسعاً بين قانون القيمة في نمط الإنتاج الرأسمالي، الذي يأخذ حصراً شكل «سعر الإنتاج» ولا يظهر إلا عبره، وما بين هذا القانون في الأنماط الإنتاجية السابقة للرأسمالية. هكذا، حين لا نحدد بأن قانون القيمة هو حصراً نتاج العلاقات الإنتاجية الرأسمالية؛ بأن هذا القانون يختلف اختلافاً كلياً عن شكل القيمة في العلاقات الإنتاجية السابقة للرأسمالية سينتهي بنا الأمر أن نختزل المسألة كلها إلى ميتافيزيقيا القيمة بشكل مجرد عن الظروف الملموسة لظهور هذه المقولة.

هكذا، حين يتحدث آدم سميث لأول مرة حول مفهوم القيمة، فإنه يتحدث عن نتيجة ضرورية لنمط الإنتاج الرأسمالي لا غير (لهذا السبب نجده يبدأ بالقيمة التبادلية، ايّ بإعتبار المجتمع ككل يقوم على تبادل السلع على نحو موسع) — رغم أنه، حاله حال ريكاردو والبورجوازيين عموماً، اعتبر هذا المفهوم مقولة أبدية تطبق في كل زمان ومكان. وكم هو غريب الأمر حين يأتي بعض الباحثين لـ «يثبتوا» بأن مفهوم القيمة قد حضر سلفاً عند ابن خلدون؛ مما يجعل المسألة تبدو وكأن هناك تناصاً ما بين مفكرين عظيمين — كما لو كان ابن خلدون هو المكتشف، المنسي، الحقيقي لكل استنتاجات الفكر السميثي. إنه، ابن خلدون، بهذا المعنى، أبو الفكر الاقتصادي الحديث. ولابد، حسب هؤلاء الباحثين، أن نرجع له هذا «الوسام» التاريخي؛ في سبيل الأمانة التاريخية. لكن ألا يفكر هؤلاء الباحثون للحظة بالفرق التاريخي والبنيوي الشاسع ما بين الاثنين؟ (بدلاً من أن يقوم بإبهارهم: «أوه! اكتشف ابن خلدون ما اكتشفه سميث قبل أربعة قرون!»). ألا يفكرون للحظة بالفروقات الحقيقية ما بين نمط الإنتاج الإستبدادي الذي عاشه ابن خلدون وما بين نمط الإنتاج الرأسمالي اليافع الذي عاشه آدم سميث؟ أيمكن حقاً أن يتوازى مفهوما القيمة عند هذين المفكرين؟

لا يمكننا أن نعتبر مفهوم القيمة المستعمل عند النظرية الخلدونية هو هو القيمة السميثية، ناهيك عن كونه يختزن نواة مفهوم القيمة الماركسية؛ التي تختلف اختلافاً كلياً عن التصور البورجوازي لها (عند الفكر الاقتصادي الكلاسيكي بالتحديد، ولكن اصبحت موضة الفكر البورجوازي مؤخراً، منذ سرافا وستييدمان، إنكار وجود القيمة كلياً). مثلاً، ما لا يفكر به هؤلاء الباحثون هو غياب مفاهيم دقيقة مرتبطة بالقيمة عن الفكر الخلدوني: كالقيمة التبادلية، والقيمة الاستعمالية، وصافي الأرباح، والأرباح الكلية، ورأس المال الثابت، والريع، والعوائد، والعمل المأجور، إلخ. أنا استحضر مقولات سميث بالتحديد، رغم أن ماركس انتقد بعضها. لكن غيابها لا يرجع إلى غياب لغوي (كما لو أنه لم يجد الكلمات المناسبة للتعبير)، بل إلى غياب الظروف الاجتماعية الفعلية التي تحمل هذه المفاهيم: العلاقات الإنتاجية الرأسمالية.

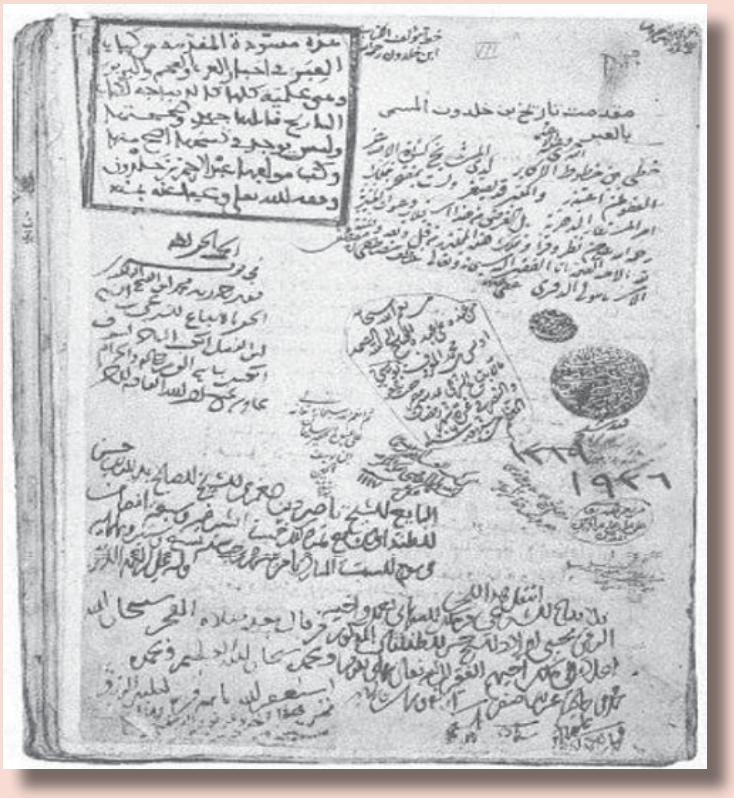

لنقرأ ما يقوله ابن خلدون حول القيمة:

((...إن كان من الصنائع فالمفادُ المقتنى منه هو قيمة عمله، وهو القصد بالقنية؛ إذ ليس هنالك إلا العملُ وليس بمقصود بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها. مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل؛ إلا أن العمل فيهما أكثر؛ فقيمته أكثر (...) يقال عن علي: (قيمة كل امرئ ما يحسن). بمعنى أن صناعته هي قيمته، أي قيمة عمله الذي هو معاشه. وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة، فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات إليها (...) لأن الدولة هي السوق الأعظم، وفيها نفاق كل شيء...))

أي قارئ لسميث سيجد فوراً موضع التناقض الذي يتجاوزه الباحثون الذين يرغبون بمماثلة الموضوعين النظريين لهذين المفكرين. ينطلق الاقتصاديون البورجوازيون إما من التبادل (كبايلي مثلاً، حيث القيم تُخلق عبر التبادل) وإما من الإنتاج نفسه (هناك قيم–عمل متجسدة في السلع نفسها، فيما التبادل يشكل الإنحراف عنها). ومن الـ خلدون يتكلم عن التبادل الاجتماعي (نقل السلع، وتخزينها، وعمليات التجارية، ورأس المال التجاري، إلخ) لكنه لا يتحدث عن قيمة اجتماعية — كماً أو كيفاً. إن المفهوم الكمي الذي يقدمه ابن خلدون للقيمة (وذلك ما يقوم به سميث وريكاردو) يرتبط مباشرة بالتجارة والمضاربة؛ حيث كل السلع إما تباع فوق قيمتها وإما تحت قيمتها — تارة عن طريق الغش وتارة عن طريق المضاربة. كما أن يربط ابن خلدون كل ذلك بالدولة نفسها، وفقاً لتحليله المادي الملموس لنمط الإنتاج الإستبدادي حينها، بكون الدولة: السوق الأعظم.

العجيب في الأمر هو أن ابن خلدون يتكلم عن القيمة كما هي ظاهرة في نمط الإنتاج الإستبدادي، لا كمقولة كونية أبدية. السؤال إذن: ألن يمكننا أن نجد نواة التحليل الاقتصادي (على الأقل بإرتباطه بمفهوم القيمة) لما يسمى بالإنتاج الاستبدادي أو الآسيوي عند ابن خلدون؟ ألن يكون ذلك فتحاً في علم المادية التاريخية؟!

التقدمي

رئيس التحرير: د. حسن مدن ـ مدير التحرير : فاضل الحليبي

التقدمي العدد 142 ـ سبتمبر 2019 السنة السابعة عشر SDPA 499

مقبلٌ موعد
المهرجان الذي
نكتبُ الآن تاريخه

■ الشهيد سعيد العويناتي

إلى أن يغفو يأسي بحزنه الناعم..

شعر: بتول حميد

في كل ليلة أنام على مخدةٍ مبتلة
أشعر كأنما الموت بكامل هيبته.. يريد
تقبيلي
كنوع من المواساة!

*****

لا أستطيع يا الله
أن أمشي هذا الليل كله
بقدمين متعبتين
ولم يكن أمامي..
إلا أن أمشي على قلبي
لم يكن خياري..
أن أُدخل ذكرياتي في غمد رأسي
وروحي ملتوية على تخت ذاكرتي
إلى أن يغفو يأسي بحزنه الناعم..

*****

وكيف يا الله تخلق القلب بهذه الرقة
والذاكرة بكل هذه القوة؟

*****

لم أجد حتى الآن
شجرة وارفة..
أصلب عليها حنيني

*****

يا رب أنا لم أتقصدْ اليأس
مازال قلبي يُسبّح برحمتك
مازال وهو على دكة غسيل الموتى
يرجوك ألا تُعمر روحي بعد دفنه

المواد التي تحمل أسماء كتابها لا تعبر بالضرورة عن رأي المنبر التقدمي

ص. ب: 21461 ت: 17780007 Altaqadomi.bh@gmail.com